

وسرُّ ذلك هو أنها لما كانت موضوعة لتأكيد الجملة  
الابتدائية لا جرم اغتفر دخولها على النكرات وهيأتها  
للحديث عنها كما ذكرناه

الفائدة الرابعة هو أنها اذا دخلت على الجملة الابتدائية  
فقد يجوز الاقتصار على الاسم دون الخبر وهذا كقوله  
إِنَّ مَحَلًّا وَإِنَّ مُرْتَحَلًّا وَإِنَّ فِي السَّفَرِ إِذْ مَضَوْا مَهَلًا  
وهذا إنما يكون حيث يكون الخبر معمولاً مدلولاً  
عليه بالقرينة ، لأن المعنى إن لنا محلاً في الدنيا وإن لنا مرتحلاً  
الى الآخرة ، فهذا ما أردنا ذكره من هذه الصور الخارجة  
عن الضوابط ، وبتمامه يتم الكلام في الفصل العاشر من الباب  
الثاني من فن المقاصد ، وهو الكلام في الدلائل الإفرادية  
وبالله التوفيق

### الباب الثالث

( في مراعاة أحوال التأليف وبيان ظهور المعاني المركبة )

اعلم ان جميع ما أسلفناه إنما هو كلامٌ في الأمور  
الإفرادية إلا أن يعرض عارضٌ فيجربى في الأمور المركبة ،  
والذى نذكره الآن إنما هو كلامٌ في الأمور المركبة ، إلا

أن يعرض ما يوجب الأفراد ، وقبل الخوض فيما نريده من ذلك نذكر تمهيداً لما نريد ذكره من بعد ، وينبنى على قواعد ثلاث

### ( القاعدة الأولى )

يجب على الناظم والناثر فيما يقصد من أساليب الكلام مراعاة ما يقتضيه علم النحو أصوله وفروعه من تعريف المبتدأ وتقديمه وجوباً ، إذا كان استفهاماً ، أو شرطاً ، وجوازاً في غير ذلك ، ومراعاة تنكير الخبر ، وتقديمه إذا كان المبتدأ نكرة ، وأن يُراعى في الشرط والجزاء ، كون الجملة الأولى فعلية وجوباً ، والثانية بالفاء إذا كانت جملة اسمية ، أو فعلية إنشائية ، كالأمر والنهي ، أو خبرية ماضية ، وأن يأتي بالواو في الجملة الاسمية إذا وقعت حالاً ، وتحذف مع المضارع المثبت ، وأن يضع كل حرف لما يقتضيه معناه بالأصالة ، فيأتي ( بما ) لنفي الحال و ( بلا ) لنفي الاستقبال و ( بإن ) الشرطية في المواضع المحتملة المشكوك فيها و ( باذا ) في المواضع الصريحة و ( بإذ ) لما مضى وينظر في الجمل ، وما يجب من مراعاة عود الضمير فيها وما لا يجب ، ويتصرف في التعريف والتنكير ، والتقديم

والتأخير ، والإضرار والإظهار ، ومواضع الاتصال والانفصال  
في الضمائر ، وتعلقات الحروف الى غير ذلك مما توجهه صناعة  
علم الاعراب ، ويوجهه حكمه

( القاعدة الثانية )

يجب عليها مراعاة ما يقتضيه اللفظ من الحقيقة والمجاز  
واعلم أن المجاز يدخل دخولا أوليا ، وله مدخل عظيم ، وهو  
أحق بالاستعمال في باب الفصاحة والبلاغة ، وقد شرحنا  
قوانينه فيما سبق فأغنى ذلك عن الإعادة ، والذي نريد ذكره  
ههنا هو أن فائدة الكلام الخطابي إنما يكون لإثبات الغرض  
المقصود في نفس السامع ، وتمكّنه في نفسه على جهة التخيل  
والتصور ، حتى يكاد ينظر اليه عيانا ، وبيان ذلك أنا إذا قلنا  
زيد أسد ، فإنه يفيد فائدة قولنا زيد شجاع ، لكن التفرقة  
بين القولين في التصور والتخيل ظاهرة ، فإن قولنا : زيد  
شجاع ، لا يتخيل منه السامع سوى أنه رجل جرىء في  
الحروب ، مقدم على الأبطال ، وإذا قلنا ، زيد أسد ، فإنه  
يتخيل عند ذلك صورة الأسد وهيئته وما هو متصف به من  
الشجاعة والبطش ، والقوة والاستطالة على كل حيوان ،

واختصاصه بدقّ الفرائس وهضمها ، وهذا لا نزاع فيه ،  
ومّا يوضّح ما ذكرناه هو أنّ العبارة المجازية تكسبُ الإنسان  
عند سماعها هزّةً وتُحرِّكُ النشاط ، وتُمَيِّلُ الأُعطاف ، ولأجل  
ذلك يُقدِّمُ الجبانُ ، ويسخوُ البخيلُ ، ويحلِّمُ الطائشُ ، ويبدلُ  
الكرِيمُ نهايةَ البذل ، ويجدُ المخاطبُ بها نشوةً كنشوةِ الخمرِ ،  
حتى إذا قطعَ ذلك الكلامُ أفاقَ من تلك السكرة ، وهبَّ  
من سِنَةِ تيكِ النومة ، وندِمَ على ما كان منه من بدل مال ،  
أو ترك عقوبة ، أو إقدام على أمر هائل ، وهذه هي فائدة  
سِحْرِ لسانِ الفصيحِ اللوذعيِّ ، المستغنى عن إلقاءِ الجبالِ  
والعصىِّ ، ومصدقُ هذه المقالة قوله صلى الله عليه وسلم : إنَّ  
من البيان لسحراً ، يُشير به الى ما قلناه ، فهذه هي فائدة  
المجاز ، نعم إذا ورد كلامٌ يكون محتبلاً للحقيقة والمجاز جميعاً  
في موارد الشريعة ، كان حملُه على حقيقته أحقَّ من حمله على  
مجازه ، لأنّها هي الأصل ، والمجاز فرعٌ ، وقد قررنا هذا  
المأخذ في الكتب الأصولية ، وهنّا ما يتعلق بعلوم البلاغة

( القاعدة الثالثة )

يجب مراعاة أحوال التأليف بين الألفاظ المفردة ،

والجمل المركبة ، حتى تكون أجزاء الكلام متلائمة آخذاً بعضها  
بأعناق بعض ، وعند ذلك يقوى الارتباطُ ويصفو جوهرُ  
نظام التأليف ، ويصير حاله بمنزلة البناء المحكم المرصوص  
المتلائم الاجزاء ، أو كالعقد من الدرّ فصلت أسماطه بالجواهر  
واللآلىء ، نخلص على أتم تأليف ، وأرشق نظام ، ولنضرب  
في ذلك مثالين

(المثال الأول) في المدح وهذا كقول البحترى

بلونا ضرائب من قد مضى      فما إن رأينا لفتح ضريباً  
هو المرء أبدت له الحادثاً      ت عزمًا وشيكًا ورأيًا صليباً  
تنقل في خلقى سوددٍ      سباحًا مرجى وبأسًا مهيباً  
فكالسيف إن جثته صارخاً      وكالبحر إن جثته مستشيباً  
فانظر إلى إجادته في تأليف هذه الكلمات التي صارت

كالأصباغ التي يعمل منها النقوش ، فما أحسن موقع قوله  
هو المرء ، كأنه قال ( فتح ) هو الرجل الكامل في الرجولية ،  
ثم تأمل الى تنكيره السودد وإضافة الخلقين اليه ، ثم عقبه  
بقوله : فكالسيف ، فلقد أجاد في التشبيه وأحسن في صوغه  
( وليس كل آذان تسمع القيل ) فليس إذا راق التنكير في

موضع يرُوق في كلِّ موضع ، بل ذلك على حسب الانتظام  
وما أخذ السياق يفوق ويزداد إعجاباً وحسناً ، فأنت اذا فكرت  
في هذه الأبيات وجدتها قد اشتملت على نهاية المدح مع  
ما حازته من جودة السبك وحسن الرصف في أسهل ما أخذ  
وأعجبه ، وهكذا يكون الإعجاب في القلة والكثرة بحسب  
ما ذكرناه

( المثال الثاني ) في الـذم وهذا كقول الشاعر

قومٌ اذا استنبج الأضيافُ كلبهمُ

قالوا لأُمَّهمُ بُولى على النارِ

(١) فتأليف هذا البيت مشتمل على نهاية الهجاء حتى

لا تكاد لفظه من ألفاظه إلا ولها حظ في الـذم والنقص لهؤلاء ،

فقوله ( قوم ) هو مخصوص بالرجال ، وفيه دلالة على أنهم أعرابٌ

(١) فتأليف الى آخر ما قال في بيان وجوه الـذم فيه . عبارة

سخيفة وهاك عبارة الاصمعي . قال هذا البيت أهجى بيت قالته

العرب . لانه جمع ضرورياً من الهجاء . نسبهم الى البخل لكونهم

يطفئون نارهم مخافة الضيفان . وكونهم يبخلون بالماء فيعوضون

عنه البول . وكونهم يبخلون بالحطب فنارهم ضعيفة تطفئها بولة .

وكون البولة بولة عجوز . وهى أقل من بولة الشابة . ووصفهم بامتهان

أمرهم . وذلك للؤمهم .

جُفَاءً لَيْسَ لَهُمْ ثَرْوَةٌ وَلَا تَمَكَّنُ فَلَإِ يَأْتُونَ شَيْئًا مِنْ مَكَارِمِ  
الْأَخْلَاقِ ، ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى ( بَادَا ) الَّتِي تُؤْذَنُ بِالشَّرْطِ الْمُؤَقَّتِ  
الْمَعِينِ ، لِيَدُلَّ بِهِ عَلَى أَنَّ الْأَضْيَافَ لَا يَعْتَادُونَ فِي الْأَوْقَاتِ  
الْقَلِيلَةِ ، ثُمَّ إِنَّهُ عَقِبَهُ بِسِينِ الاسْتِفْعَالِ لِتَوْذِنِ أَنْ كَلْبَهُمْ لَيْسَ  
مِنْ عَادَتِهِ النَّبَاحِ ، وَإِنَّمَا يَقَعُ مِنْهُ ذَلِكَ عَلَى جِهَةِ النَّدْرَةِ لِإِزْكَارِهِ  
لِلضَّيْفِ ، وَأَنَّهُ لَا عَهْدَ لَهُ بِهِمْ ، ثُمَّ جَاءَ بِالْأَضْيَافِ عَلَى جَمْعِ الْقَلَّةِ ،  
لَمَّا كَانُوا لَا يَقْصِدُهُمْ إِلَّا نَفَرٌ قَلِيلٌ ، ثُمَّ عَرَّفَهُ بِاللَّامِ إِشَارَةً إِلَى  
أَنَّهُمْ قَوْمٌ مَعْرُودُونَ لَا يَقْصِدُهُمْ كُلُّ أَحَدٍ ، وَفِيهِ دَلَالَةٌ أَيْضًا عَلَى  
أَنَّهُمْ كَلْبُهُمْ لَا يَنْبَحُ إِلَّا بِالِاسْتِنْبَاحِ لِهَزَالِهِ وَقَلَّةِ قُوَّتِهِ مِنَ الْجُوعِ  
وَالضَّعْفِ ، ثُمَّ أَفْرَدَ الْكَلْبَ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ سِوَاهُ  
لِحَقَارَةِ الْحَالِ وَكَثْرَةِ الْفَقْرِ ، ثُمَّ إِنَّهُ أَضَافَ الْكَلْبَ إِلَيْهِمْ  
اسْتِحْقَارًا لِحَالِهِمْ ، ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى بِقَالُوا ، لِيَعْرِفَ مِنْ حَالِهِمْ أَنَّهُمْ  
لَا خَادِمَ لَهُمْ يَقُومُ مَقَامَهُمْ فِي ذَلِكَ ، وَأَنَّهُمْ يَبَاشِرُونَ حَوَائِجَهُمْ  
بِأَنْفُسِهِمْ ، ثُمَّ جَعَلَ الْقَوْلَ مِنْهُمْ مَبَاشِرَةً لِأَمْرِهِمْ ، لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ  
يَكُنْ هُنَاكَ مَنْ يُخَلِّفُهَا مِنْ خَادِمَةٍ وَغَيْرِهَا فِي إِطْفَاءِ النَّارِ ، فَأَقَامَ  
أَمْرَهُمْ مَقَامَ الْأُمَّةِ وَالْخَادِمَةِ فِي قَضَاءِ الْحَوَائِجِ لَهُمْ ، وَلَمْ يُشْرَفُوهَا  
عَنْ ذَلِكَ ، ثُمَّ جَعَلَهُمْ قَائِلِينَ لَمَّا يَسْتَنْكِرُ مِنْ لَفْظِ الْبَوْلِ لِأَنَّهُ  
ذَكَرَهُ يَشْعُرُ بِذِكْرِهِ مَخْرُجًا مِنَ الْعُورَةِ فِي حَقِّ الْأُمِّ فَلَمْ يَكُنْ

هناك حِشْمَةٌ لهم ولا مَرْوَةٌ في إضافة ما أضيف إليها من ذلك، ثم قال على النار، فيه دلالة على ضعف نارهم لقلّة زادهم، وأنه يطفئها بولة، وأنها إنما أُمرت بذلك، كي لا يهتدى الأضياف إليهم ولا يعرفوا مكانهم، ثم أتى بلفظة على، ولم يقل فوق النار، ليدل بحرف الاستعلاء على أنها قصدت حقيقة الاستعلاء بالبول قائمة من غير مبالاة في التستر ولا مروءة في تغطية العورة، فقد وضح لك بما قررناه أن التأليف هو العمدة العظمى والقانون الأكبر في حسن المعاني وعظم شأنها ونخامة أمرها، ومن الأمثلة الرائقة ما يؤثر عن أمير المؤمنين قاله في أول خلافته: (ان الله سبحانه أنزل كتاباً هادياً بين فيه الخير والشرّ، فخذوا نهج الخير تهتدوا، واصدقوا عن سمّ الشرّ تقصدوا، الفرائض الفرائض، أدوها إلى الله تؤدّكم إلى الجنة، إن الله تعالى حرّم حراماً غير مجهول، (١) وفضل حرمة المسلم على الحرّم كلها، وشدد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقديها، فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق، ولا يحلّ أذى المسلم إلا بما يجب، بادروا أمر العامة، وخاصة أحدكم وهو الموت فإن الناس أمامكم

(١) سقط هنا قوله . وأحلّ حلالاً غير مدخول

وإن الساعة تَخْدُوكُمْ من خلفكم ، تَحْفَقُوا تَلْحَقُوا ، فإنما ينتظر  
بأولكم آخركم ، اتقوا الله في عباده وبلاده ، فإنكم مسؤولون  
حتى عن البقاع والبهائم ، وأطيعوا الله ولا تعصوه ، وإذا رأيتم  
الخير فخذوا به ، ، وإذا رأيتم الشر فأعرضوا عنه ) فلي نظر الناظر  
ما اشتمل عليه هذا الكلام من حسن التأليف وبديع  
التصريف ، وليحفظ ما تضمنه قوله ، تَحْفَقُوا تَلْحَقُوا ، بعين  
البصيرة وما اشتمل عليه من بلاغة المعاني وجزالة الالفاظ ،  
وإنه لكلامٌ من استوى على عرش البلاغة واستولى ، ودلّ  
بالارشاد على مصالح الدين والدنيا ، فعليك بمراعاة جانب  
التأليف فإنه القطب الذي تدور عليه أرحية البلاغة ، ولا  
سبيل الى جذبته بزمامه ، والاستيلاء على كماله وتمامه ، الا  
بعد إحراز فصول تكون محتوية على أسرارها ، ومستولية على  
المقصود منه

### — الفصل الاول —

( في ذكر الاطناب وبيان معناه )

اعلم أن الإطناب وادٍ من أودية البلاغة ، ولا يرد الآ  
في الكلام المؤتلف ، ولا يختص بالمفردات ، لأن معناه

لا يحصل الآ في الأمور المركبة ، فمن أجل هذا خصصناه بالإيراد في هذا الباب ، والاطنابُ مصدرُ أطنب في كلامه إطناباً ، إذا بالغ فيه وطول ذيوله لافادة المعاني واشتقاقه من قولهم: أطنب بالمكان اذا طال مقامه فيه ، وفرس مطنب (١) اذا طال مثنه ، ومن أجل ذلك سُمي جبل الخيمة طنباً لطوله ، وهو تقيض الإيجاز في الكلام ، فلنذكر ماهيته والتفرقة بينه وبين التطويل ، ثم نذكر أقسامه ، ثم نردفه بذكر الأمثلة فيه ، فهذه مباحث ثلاثة فصلها بمعونة الله تعالى

### ﴿ البحث الأول ﴾

( في ماهيته والتفرقة بينه وبين التطويل )

ومعناه في لسان علماء البيان هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة جديدة من غير تريد فقولنا: هو زيادة اللفظ على المعنى ، عام في الإطناب ، وفي الألفاظ المترادفة كقولنا : ليثٌ وأسدٌ ، فإنه كله من باب زيادة اللفظ على معناه ، وقولنا لفائدة ، يخرج عنه التطويل ، فإنه زيادة من غير فائدة ، وقولنا جديدة ،

---

(١) صوابه وفرس أطنب . وصفا من طنّب الفرس . كطرب

تخرج عنه الالفاظ المترادفة ، فإنها زيادة في اللفظ على المعنى  
لفائدة لغوية ، ولكنها ليست جديدة ، وقولنا من غير ترديد ،  
يحترز به عن التواكيد اللفظية كقولنا : اضرب اضرب ،  
فإنها زيادة اللفظ على المعنى لفائدة جديدة ، وهو التأكيد ،  
لكنه ترديد اللفظ وتكريره ، بخلاف الإطناب فإنه خارجٌ  
عن التأكيد ، فوضح بما ذكرناه شرح ما هيّة الإطناب بهذه  
القيود التي أشرنا إليها ، فصارت الأمور التي يلبس بها  
الإطنابُ ثلاثة ، التطويل ، وهو مزيد من غير فائدة ،  
والتكرير ، والترادف ، وقد خرج التكرير بقيد الترديد ،  
وخرج المترادف بقيد الفائدة الجديدة ، وخلص باعتبار هذه  
القيود عن غيره من سائر الحقائق ، فكان حاصل الإطناب  
الاشتداد في المبالغة في المعاني ، أخذاً من قولهم : أطببت  
الريح ، إذا اشتد هبوبها ، وأطبب الرجلُ في سيره ، إذا  
اشتد فيه ، وهو غير مناقض لما ذكرناه في اشتقاقه في  
صدر الباب

( وأما ) التفرقة بينه وبين التطويل فاعلم أن علماء البيان  
لهم في ذلك مذهبان ، المذهب الأول أن الإطناب هو  
التطويل ، وهذا هو المحكي عن أبي هلال العسكري ، وعن

الغائمي أيضاً ، وقالوا : ان كتب الفتح والتقاليد كلها ينبغي أن تكون مطوّلةً كثيرة الاطناب ، لأنها مما يقرأ على عوام الناس لا فتقارها الى البيان ، فكلامهما يقضى بأنه لا تفرقة بين الإطناب والتطويل ، المذهب الثاني أنهما يفترقان فان الإطناب يذكر لفائدة عظيمة بخلاف التطويل ، فإنه لا فائدة وراءه ، وهذا هو الذي عليه الأكثر من علماء البلاغة ، واليه يشير كلام ابن الأثير وهذا هو المختار ، ويدلُّ على ما قلناه من التفرقة بينهما ، هو أن الإطناب صفة محمودة في البلاغة ، بخلاف التطويل ، فإنه صفة مذمومة في الكلام ، وما ذاك إلا لأن الإطناب يجي من أجل الفائدة بخلاف التطويل ، فإنه يكون من غير فائدة ، فحصل من مجموع ما ذكرناه أن ما يتوصل به الى البُنية من معاني الكلام أمورٌ ثلاثة ، الإيجاز ، والإطناب ، والتطويل ، فأما الإيجازُ فهو دلالة اللفظ على معناه من غير نقصان فيُخِلّ ، ولا زيادة فيُملِّ ، وقد رمزنا الى أسرارهِ فيما سبق ، وأما التطويلُ والإطنابُ فهما متساويان في تأدية المعنى ، خلا أن الإطنابَ مختص بفائدة جديدة ، ولاجلها كان ممتازاً عن التطويل ، ومثال ما قلناه من ذلك كمن سَلَكَ لطلب مقصدٍ من المقاصد ثلاثَ طرقٍ فانها

كلّها موصلةٌ الى ما يريد ، فأحدها أقربُ الطَّرُق ، وهو  
نظير الإيجاز والطريقان الأخریان متساويتان في الإِطالة ،  
وهما نظيرا الإِطْناب والتطويل ، خلا أن أحدهما مختصٌّ إما  
بمُتَنَزِّهٍ حسنٍ ، أو بمياهٍ عذبةٍ ، أو زيارة صديق أو غير ذلك  
من الفوائد فهو نظير الإِطْناب كما لخصناه ، وأصدقُ مثال في  
الإيجاز ، والإِطْناب ، والتطويل ، ما حكاه ابن الأثير وهو  
أن المأمون لما وجهَ طاهرَ بن الحسين في عسكرٍ لحرب عيسى  
ابن ماهانَ فقتله وهزم عسكره ، واستولى على جنده ثم كتب  
اليه طاهر يخبره بذلك فقال : كتابي الى أمير المؤمنين ورأسُ  
عيسى بن ماهانَ بين يديّ وخاتمه في يدي ، وعسكره  
مُتَصَرِّفٌ تحت أمري والسلام ، فهذا كتاب قد أوجز فيه غاية  
الإيجاز وأتى فيه بالفرض المقصود من غير تطويل ولا إِطْناب ،  
لاشماله على تفاصيل القصة وإجمالها ، وهو من أحسن أمثلة  
الإيجاز ، وإن وجهته على جهة الإِطْناب فإنك لتشرح القصة  
مفصلة وتودع التفاصيل زُبْدًا عظيمة من تعظيم المأمون وقوة  
سلطانه ونهضة جنده الإسلام واستطاته على الكُفَّار من  
أهل الردة ، لأن عيسى بن ماهان كان نصرانياً فيما قيل ،

ويحكى صفة الواقعة وما كان مع فوائد عظيمة ونكت جمة ،  
فما هذا حاله يكون إطناباً لاحتوائه على ما ذكرناه من الفوائد ،  
وإن حكاها بصفة التطويل العري عن الفوائد بان يقول  
صدر الكتاب يوم كذا من مكان كذا في شهر كذا والتقى  
عسكرنا وعسكره ، وتزاحف الجمعان ، وتطاعن الفريقان ،  
وحمي القتال واشتد النزال مع تفاصيل كثيرة ثم قتل  
عيسى بن ماهان واحترأ رأسه ونزع الخاتم من يده ، وترك  
جسده طعاماً للطيور والسباع والذئب وغير ذلك من تفاصيل  
الوقعة ، فهذا يقال له التطويل من جهة أن تفاصيل الوقعة  
خالية عن الفوائد الغزيرة التي يُحتاج إلى مثلها فهذه هي أمثلة  
الأمر الثلاثة قد فصلناها ليحصل التمييز بينها

( البحث الثاني )

( في ذكر تقسيم الاطناب )

واعلم ان الإطناب قد يكون واقعاً في الجملة الواحدة ،  
وقد يرد في الجمل المتعددة ، فهذان القسمان نذكر ما يتعلق  
بكل واحدٍ منهما بمعونة الله تعالى

(القسم الأول)

ما يكون متعلقاً بالجملة الواحدة ، وتارة يردُّ على جهة الحقيقة  
وتارة يردُّ على جهة المجاز ، فهذان وجهان

(الوجه الأول)

ما يرد من الإطناب على جهة الحقيقة وهذا كقولنا :  
رأيتُه بعيني ، وقبضته بيدي ، ووطئته بقدمي وذقته بلساني  
إلى غير ذلك من تعليق هذه الأفعال بما ذكرناه من الأدوات  
وقد يظنّ الظانّ أن التعليق بهذه الآلات إنما هو لغوٌ لا  
حاجة إليه فإنّ تلك الأفعال لا تُفعل إلاّ بها ، وليس الأمر كما  
ظنّ بل هذا إنما يقال في كل شيء يعظم مناله ويعزّ الوصول  
إليه ، فيؤتى بذكر هذه الأدوات على جهة الإطناب دلالةً  
على نيّاه ، وأن حصوله غير متعذر ، وعلى هذا ورد قوله تعالى  
(ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ) وقوله تعالى (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ  
بِأَلْسِنَتِكُمْ) لأن هذه الآيات إنما وردت في شأن الإفك وفي  
جعل الزوجات أمهات ، وفي جعل الأذعياء أبناءً ، فأعظم  
الله الرّدّ والإنكار في ذلك بقوله (وتقولون بأفواهكم) على  
أهل الإفك في الرمي بفاحشة الزنا لمن هي ظاهرة العفاف

والسّر وبقوله ( ذلكم قولكم بأفواهكم ) على من قال لزوجته  
هي عليه كظهر أمّه ، أو لمن قال لمملوكه يا بنيّ فبالغ في الردّ  
بهذه المقالة والنكير عليها عن أن تكون الزوجة أمّاً والعبد  
ابنّاً وأنّ مثل هذا يكون محالاً ، وهو أن يُجمع بين الزوجية  
والأمومة وبين البنوة والعبودية ، ومن هذا قوله تعالى  
( ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه ) فقد علم ان القلب  
لا يكون الا في الجوف ولكن الغرضُ المبالغةُ في الإنكار  
بأن يكون للإنسان قلبان ، أكّد ذلك بقوله في جوفه ، ومن  
هذا قوله تعالى ( فخرّ عليهم السقف من فوقهم ) فإنّ المعلوم من  
حال السقف أنه لا يكون الا من فوق ، وإنما الغرضُ المبالغة  
في الترهيب والتخويف والإنكار والردّ كما أشار اليه بقوله  
( قد مكرّ الذين من قبلهم فأتى الله بُيُوتَهُم من القواعد )  
يعنى بالخراب والهدم فخرّ عليهم السقف من فوقهم ، تشديداً  
في الأمر ، وتهويلاً لهم ، واعظاماً لحاله وهكذا قوله تعالى  
في سورة الحاقة ( نَفْخَةٌ واحدةٌ ودَكَّةٌ واحدةٌ ) فإنّ  
التاء مؤذنةٌ بالوحدة ، ولكنه أتى بالصفة على جهة المبالغة  
بالإطناب في فخامة الأمر وعظمه ، فأما قوله تعالى ( ومنّاةٌ  
الثالثة الأخرى ) فليس هذا من باب الإطناب بالتأكيد ،

وانما هو من أجل مراعاة سجع الآي ، فإنها من أول السورة  
على الألف ، فلاجل هذا قال (الثالثة الأخرى ) مراعاةً  
لما ذكرناه

( الوجه الثاني )

فما يرد على جهة المجاز في الإطناب ، وهذا كقوله تعالى  
(فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في  
الصدور) فالفائدة بذكر الصدور ههنا وإن كانت القلوب  
حاصلة في الصدور على جهة الإطناب بذكر المجاز ، وبيانه  
هو أنه لما علم وتحقق ان العمى على جهة الحقيقة إنما يكون  
في البصر ، وهو أن تصاب الحدقة بما يذهب نورها ويزيله ،  
واستعماله في القلوب إنما يكون على جهة التجوز بالتشبيه ،  
فما أريد ما هو على خلاف المتعارف من نسبة العمى الى  
القلوب ونفيه عن الأبصار ، لا جرم احتاج الامر فيه الى  
زيادة تصوير وتعريف ، ليتقرر أن مكان العمى هو القلوب ،  
لا الأبصار ، ولو قال فإنها لا تعمي الأبصار ولكنها تعمي  
الأبصار التي في الصدور ، لكان مفتقراً الى ذكر الصدور ،  
كافتقار القلوب ، لكن القلوب أدخل في الحاجة ، ولهذا

وردت الآيةُ عليه لانه قد يتجاوز بلفظة الأَبصار في العقول ،  
ولا يتجاوز بالقلوب عن العقول فلاجل هذا كان ذكرُ قوله في  
الصدور عقيب القلوب أحسن من ذكرها عقيب الأَبصار  
لما ذكرناه ، وهذا من لطائف علم البيان ومحاسنه  
(القسم الثاني)

في بيان ما يرد في الجُمْل المتعددة ، ويرد على صور  
مختلفة ، وكلُّها وإن اختلفت فانها ترجع الى الضابط الذي  
ذكرناه من قبل ، ونُشيرُ منه ههنا الى ضروب أربعة ، وفيها  
دلالة على غيرها بمعونة الله تعالى

(الضرب الأول) ما يكون عائداً الى النفي والإثبات ،  
وحاصله راجعٌ الى أن يُذكر الشيء على جهة النفي ، ثم يُذكر  
على جهة الإثبات أو بالعكس من ذلك ، ولا بدَّ أن يكون  
في أحدهما زيادة فائدة ليست في الآخر يؤكد ذلك المعنى  
المقصود ، والأ كان تكررًا ، ومثاله قوله تعالى ( لا يَسْتَأْذِنُكَ  
الذين يُؤْمِنُونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ أن يُجاهدوا بأموالهم  
وأَنْفُسِهِمْ واللهِ عليمٌ بالمتقين ) ثم قال تعالى ( إنما يَسْتَأْذِنُكَ  
الذين لا يُؤْمِنُونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ وارْتَأَبَتْ قلوبُهُم فهم في

رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ) فالآية الثانية كالأية الأولى الآ في النفي  
والإثبات ، فإن الأولى من جهة الإثبات ، والثانية من جهة  
النفي ، فلا مخالفة بينهما إلا فيما ذكرناه ، خلا أن الثانية اختصت  
بمزيد فائدة ، وهي قوله ( وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم  
يترددون ) إعلاماً بحالهم في عدم الإيمان بالله واليوم الآخر ،  
وأنهم في وجل وإشفاقٍ من تكذيبهم ، حيارى في ظلم  
الجهل ، لا يخاضون إلى نور وهدي ، ولولا هذه الفائدة  
لكان ذلك تكريراً ولم يكن من باب الإطناب ، ومن هذا  
قوله تعالى ( وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلَفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ  
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ، يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ  
الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ) فقوله : يعلمون . بعد قوله : لا يعلمون ،  
من الباب الذي نحن بصدده ، ولهذا فانه نفي عنهم العلم بما  
خفي عنهم من تحقيق وعده ثم أثبت لهم العلم بظاهر الحياة  
الدنيا ، فكأنه قال : علموا ، وما علموا ، لأن العلم بظاهر  
الأمر ليس علماً على الحقيقة ، وإنما العلم هو ما كان علماً  
بطريق الآخرة ومؤدياً إلى الجنة ، فلولا اختصاص : قوله  
يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون  
لكان تكريراً لا فائدة تحته ، فلاجل ما ذكرناه عد من

الإطناب لاشتماله على ما ذكرناه من الفائدة التي لخصناها  
(الضرب الثاني) أن يُصدَّر الكلامُ بذكر المعنى  
الواحد على الكمال والتمام، ثم يُردَّف بذكر التشبيه على جهة  
الإيضاح والبيان ومثاله قول أبي عبادَةَ البحتري  
(ذات حسن لو استزادت من الحسن إليه لما أصابت مزيداً)  
(فهي كالشمس بهجة والقضيب اللدن قدَّأوالرثم طرفاً وجيداً)  
فاليِّتُ الأوَّل كان كافياً في إفادة المدح، وبالغاً غاية  
الحُسْن، لأنَّه لما قال لو استزادت لما أصابت مزيداً، دخل  
تحتَه كلُّ الأشياءِ الحسنة، خلا أن للتشبيه مزيةً أُخرى تفيد  
السامع تصوّراً وتخيلاً لا تحصل من المدح المطلق، وهذا  
الضرب له موقعٌ بديعٌ في الإطناب وهكذا ورد قوله أيضاً  
تردَّد في خلقي سوَّدِدِ \* سماحاً مرجي وبأساً مهيباً  
فكالسيف إن جثته صارخاً \* وكالبحر إن جثته مُستثيباً  
فاليِّتُ الأوَّل دالٌّ على نهاية المدح، لكن اليِّتُ الثاني  
موضَّحٌ ومبينٌ لمعناه، لأن البحر للسماح، والسيف للباس  
المهيب، مع اختصاصه بالتشبيه الفائق الذي يكسبُ الكلام  
رونقاً وجمالاً، ويزيده قوةً وكمالاً، وله وقعٌ في البلاغة

وتأكيد في المعنى ، والتفرقة بين هذا الضرب وما قبله ظاهرة لا خفاء بها ، فان هذا واردٌ على جهة التشبيه بعد تقدم ما يرشد الى المعنى ويقويه ، بخلاف الضرب الأول ، فإن الإطناب فيه من جهة المفهوم المعنوي ، وبيانه هو أنه لما قال في الآية الأولى ( لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وانفسهم ) أشعرَ ظاهرُها من جهة المفهوم أن غير هؤلاء بخلافهم ، وأنهم المخصوصون بالاذن ، فاذا قال بعد ذلك ( إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ) كان هذا مؤكداً لمفهوم الآية الأولى موضعاً له ، مع ما أفاد من تلك الفائدة التي ذكرناها ، وهو اختصاصهم بالريب والوجل والتردد والحيرة ، وهكذا الكلام في الآية الثانية فانه لما قال ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، فنفياً عاماً أشعرَ ظاهرُه أنهم غيرُ عالمين بعلم الدين ، وحقائق علم الآخرة ، ومفهومها أن معهم علماء من ظاهر الدنيا ، فاذا قال بعد ذلك ( يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ) كان إطناباً لمفهومها مؤكداً مع زيادة فائدة فيه ، وهو غفلتهم عن أمور الآخرة واعراضهم عنها ، فحصل من مجموع ما ذكرناه أن الإطناب في الضرب

الأول إنما يظهر من جهة ما ذكرناه من المعنى المفهوم ، وان  
الاطناب في الضرب الثاني إنما يظهر من جهة اللفظ بإيراد  
التشبيه للإيضاح والتقرير كما أشرنا إليه

(الضرب الثالث) أن يذكر الموصوف فيؤتى في ذلك  
بمعان متداخلة خلاً أن كل واحد من تلك المعاني مختص  
بخصيصة لا تكون للآخر ، ومثاله قول أبي تمام يصف  
رجلاً أنعم عليه

من منة مشهورة وصنيعة

بكر وإحسان أغر محجل

فقوله منة مشهورة ، وصنيعة بكر ، وإحسان أغر  
محجل ، معان متداخلة ، لأن المنة والإحسان والصنيعة كلها  
أمور متقاربة بعضها من بعض ، وليس ذلك من قبيل التقرير ،  
لأنها إنما تكون تكريراً لو اقتصر على ذكرها مطلقاً من  
غير صفة كأن يقول منة وصنيعة وإحسان ولكنه وصف  
كل واحدة منها بصفة تخالف صفة الآخر ، فلا جرم  
أخرجها ذلك عن حكم التكرير ، فقال (منة مشهورة)  
لكونها عظيمة الظهور لا يمكن كتمانها ، وقوله (صنيعة بكر)  
فوصفها بالبكرة ، أي أن أحداً من الخلق لا يأتي بمثلها من قبل

ومن بعدُ ، وقوله ( وإِحسانٌ أغرَّ محجَّل ) فوصفه بالغرَّة ليدلَّ  
بذلك على تعداد محاسنه وكثرة فوائده ، فلما وصف هذه  
المعاني المتداخلة الدالة على شيء واحدٍ بأوصافٍ متباينةٍ صار  
ذلك إطناباً ولم يكن تكريراً ، وكقول أبي تمام أيضاً  
ذِكْرُ سَجَايَاهُ تَضِيفُ ضِيُوفَهُ  
وَيُرْجَى مُرْجِيَهُ وَيُسْأَلُ سَائِلُهُ

فإنَّ غرضه فيما قاله ذكرُ المدوحِ بالكرمِ وكثرةِ العطاءِ ،  
خلا أنه وصفه بأوصافٍ متعددةٍ ، فجعل ضيوفه تضيف ،  
وراجيه يُرْجَى ، وسائله يُسْأَلُ ، وليس هذا من باب التكرير ،  
لأنَّ كلَّ واحدٍ منها دالٌّ على خلاف ما دلَّ عليه الآخر  
لأنَّ ضيفه يستصحب ضيفاً طمعاً في كرمٍ مُضِيفِهِ ، وسائله  
يُسْأَلُ ، أي أنه يُعْطَى السائلين عطاءً جزلاً يصيرون به  
مُعْطِينَ غيرهم ، وراجيه يرجى ، أراد أنه إذا تعلق به رجاء  
راجٍ فقد ظفرَ بنجاح حاجته وفاز بإنجاز مطابه ، وهذا أعظم  
وصف وأبلغه

(الضرب الرابع) من الإطناب أن المتكلم إذا أراد  
الإطناب فإنه يستوفي معاني الغرض المقصود من رسالة ، أو  
خطبة ، أو تأليف كتاب ، أو قصيدة ، أو قرطاس ، أو غير

ذلك من فنون الكلام ، وهذا هو أصعب هذه الضروب الأربعة ، وأدقها مسلكاً ، وأضيقها جرياً ، لكونه مشتملاً على اطائف كثيرة ، ويتفرع الى فنون واسعة ، تتفاضل فيها المراتب ، وتتفاوت فيها الدرَجُ في أساليب النظم والنثر ، والتبريز فيه قليل ، فما قلت أفاظه وكثرت معانيه فهو الإيجاز ، وما كثرت أفاظه وكان فيها دلالة على الفوائد فهو الإطناب ، وما كثرت أفاظه من غير فائدة فهو التطويل ، وما تكررت أفاظه المتماثلة فهو التكرير ، وقد قررنا هذه المعاني من قبل فأغنى عن إعادتها ، فهذا ما أردنا ذكره في تقسيم الاطناب والله الموفق

### ﴿ البحث الثالث ﴾

( في ذكر أمثلة الاطناب )

اعلم ان هذا النوع من علم البيان كثير المحاسن واسع الخطوط اطائفه بديعة ، ومداخله دقيقة ، فلنورد أمثله من كتاب الله تعالى ، ثم من السنة الشريفة ، ثم من كلام أمير المؤمنين ومن كلام البلغاء ، فهذه أنواع أربعة

(النوع الاول)

ما ورد فيه من كتاب الله تعالى فمن ذلك ما ورد في  
صفة الجنة على جهة الإيجاز قوله تعالى ( فيها ما تشتهي  
الأنفس وتلذذ الأعين وأنتم فيها خالدون ) فهذه نهاية الإيجاز ،  
فإنه قد استولى على جميع اللذات كلها من غير إشارة الى  
تفصيل ، وكذلك قوله تعالى ( فلا تعلم نفس ما أخفى لهم  
من قرة أعين ) فهذا أيضاً دال على غاية اللذة بأوجز عبارة  
واللطفها ، ومنه قوله تعالى ( وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً  
كبيراً ) وقوله تعالى ( تعرف في وجوههم نضرة النعيم )  
الى غير ذلك من الإيجاز البالغ ، والإطناب كقوله تعالى  
( مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن  
وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين  
وأنهار من عسل مصفى ) وقوله تعالى ( في جنّة عالية لا تسمع  
فيها لاغية فيها عين جارية فيها سُرُر مرفوعة وأكواب  
موضوعة وتماشق مصفوفة وزرابى مبثوثة ) وقوله تعالى ( على  
سُرر موضونة متكئين عليها متقابلين يطوف عليهم  
ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين لا

يُصَدِّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ  
مِمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٍ عِينٍ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ) ومن ذلك  
قوله تعالى ( إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا وَكَوَاعِبَ  
أَتْرَابًا وَكَأْسًا دِهَاقًا لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ) وقوله  
تعالى ( وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى  
الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ  
ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَلْفُوفُهَا تَذْلِيلًا وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآيَاتٍ مِنْ فَضَّةٍ  
وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا  
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى  
سَلْسَبِيلًا وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ وَالِدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَوْهُمُ  
حَسِبَتْهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا ) ثم قال ( عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ  
وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا  
طَهُورًا ) وقوله تعالى في سورة الرحمن فانه أَوْجَزُ أَوْلَا ، ثم  
أَطْنَبَ فِي وَصْفِ الْجَنَّةِ ، فقال في الإيجاز ( وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ  
رَبِّهِ جَنَّاتٍ ) ثم قال ( فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ) ثم أطنب  
بعد ذلك بقوله ( مُتَّكِنِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ  
وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ) ثم قال بعد ذلك ( مُدْهَامَتَانِ ، فِيهِمَا

عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ) وقال فيهما عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ) وقال ( فيهما  
فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ) ثم قال ( حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ )  
وقال ( فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ) ثم قال ( مَتَّكِئِينَ عَلَى  
رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ) فهذه كلها أوصاف جارية  
على جهة الإطناب ، فأما الإيجاز في صفة أهل النار فقوله  
تعالى ( إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ خَالِدُونَ لَا يفتَرُونَ عَنْهُمْ  
وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ) وقوله تعالى ( إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ )  
إلى غير ذلك مما يدل على الهوان من جهة الإجمال ، وأما  
الإطناب فكقوله تعالى ( وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ  
خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ  
فِيهَا كَالْحُوتِ ) وقوله تعالى ( وَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ  
ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي  
بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ) وهكذا القول في  
الإيمان والكفر ، وصفة المؤمنين والكفار ، فإنه قد ورد في  
حقهم الإيجاز والإطناب ، وهو ظاهر لا يحتاج فيه إلى  
التكثير ، فأما التطويل فكتاب الله تعالى منزّه عنه ، لكونه  
تكثيراً من غير فائدة مستجدة ، ومثاله لو أريد وصف  
بستان يتضمن فواكه ، لقليل فيه : الرُّمَّانُ الَّذِي وَرَقُهُ أَخْضَرُ

مستطيلٌ وله قُضبانٌ لَدُنَّهُ لها شجونٌ وفنونٌ مشتملةٌ على  
حَبِّ مَدُورٍ في وسطها أعطافٌ مشحونةٌ يبنادق حُمُرًا إلى غير  
ذلك ، فما هذا حاله يُعَدُّ من التطويل الذي لا ثمرة له ولا  
فائدة تحته

### ( النوع الثاني )

ما ورد من جهة السنة النبوية فأما الإيجاز فمثاله قوله  
صلى الله عليه وسلم : حكايةً عن الله تعالى أُعِدَّتْ لِعِبَادِي  
الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أُذُنٌ سمعت ولا خطرَ على قلب  
بَشَرٍ ، بَلَّغَهُ مَا ادَّخَرْتُ لَهُمْ ، وفي حديث آخر في الجنة ما لا  
عينٌ رأت ولا أُذُنٌ سمعت ولا خطرَ على قلب أحد إلى  
غير ذلك من الأحاديث الواردة على جهة الأجمال ،  
وأما الإطنابُ فكقوله (١) صلى الله عليه وسلم من لذَّذ أخاهُ  
بما يشتهيهِ رَفَعَ اللهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ دَرَجَةٍ وَكُتِبَ لَهُ أَلْفُ  
أَلْفِ حَسَنَةٍ وَمَحَا عَنْهُ أَلْفُ أَلْفِ سَيِّئَةٍ وَأُطْعِمَهُ مِنْ ثَلَاثِ  
جَنَانٍ ، مِنْ جَنَّةِ الْفَرْدُوسِ ، وَمِنْ جَنَّةِ الْخُلْدِ ، وَمِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ ،  
ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : مَنْ سَقَى مُؤْمِنًا شَرْبَةً سَقَاهُ

(١) هذا الحديث والذي يليه من الأحاديث الموضوعة

الله من الرحيق المختوم ، أو قال من نهر الكوثر ، ومن كسا مؤمناً كساه الله من سندس الجنة ، ومن أطعم مؤمناً لقمةً أطعمه الله من طيبات الجنة وفواكهها وقوله صلى الله عليه وسلم : في الإيمان إنه بضع وسبعون <sup>(١)</sup> باباً أعلاه لا إله الا الله وأدناه إمطة الأذى عن الطريق ، فهذا وما شاكلة من باب الإيجاز الرائق والاختصار الفائق لاندراج الخصال الكثيرة والشعب المنتشرة تحت ما ذكره في حق الإيمان ، ومن الإطناب قوله صلى الله عليه وسلم : لا يكمل إيمان العبد بالله حتى يكون فيه خمس خصال ، التوكل على الله ، والتفويض الى الله ، والتسليم لأمر الله ، والرضا بقضاء الله ، والصبر على بلاء الله ، إنه من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله فقد استكمل الإيمان ، فانظر الى ذكره تلك الخصال الخمس التي جعلها أصلاً في كمال الإيمان كيف أردفها بما هو كالثمره لها ، والمصدّق لامرها بقوله : إنه من أحب لله ، لأن كل من كملت فيه تلك الخصال فلا شك في كون أعماله تكون لله من حب أو بغض أو إعطاء أو منع ، ومن الاطناب

(١) باباً صوابه شعبة

الحسن قوله صلى الله عليه وسلم : **إِنَّ الْعَبْدَ لَا يُكْتَبُ فِي الْمَسْلَمِينَ حَتَّى تَسْلَمَ النَّاسُ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ ، وَلَا يُعَدُّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى يَأْمَنَ أَخُوهُ بِوَأْتِقِهِ ، وَجَارُهُ بِوَادِرِهِ ، وَلَا يَنَالُ دَرَجَةَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حِذَارًا مَا بِهِ الْبَأْسُ ،** ومن الأيجاز الرشيق قوله صلى الله عليه وسلم في طلب الرزق : **إِنَّ الرِّزْقَ لَيَطْلُبُ الرَّجُلَ كَمَا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ ، وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : الرِّزْقُ رِزْقَانِ رِزْقٌ تَطْلُبُهُ وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ ،** ومن الإطناب قوله صلى الله عليه وسلم : **يَا بَنِي آدَمَ تَوْتَى كُلُّ يَوْمٍ بِرِزْقِكَ وَأَنْتَ تَحْزَنُ وَيَنْقُصُ كُلُّ يَوْمٍ مِنْ أَجَلِكَ وَأَنْتَ تَفْرَحُ تُعْطَى مَا يَكْفِيكَ وَتَطْلُبُ مَا يُطْغِيكَ ، لَا مِنْ كَثِيرٍ تَشْبَعُ ، وَلَا بِقَلِيلٍ تَقْنَعُ ، فَأَصْغِ سَمْعَكَ أَيُّهَا النَّازِرُ إِلَى هَذَا الْإِطْنَابِ الْبَالِغِ فِي الْمَوْعِظَةِ كُلِّ غَايَةٍ ، وَالْمُتَجَاوِزِ فِي النَّصِيحَةِ كُلِّ حَدٍّ وَنَهَايَةٍ**

### ( النوع الثالث )

ما ورد من كلام أمير المؤمنين كرم الله وجهه ، فمما ورد من كلامه على جهة الأيجاز قوله في التوحيد **كُلُّ مَا حَكَاهُ الْفَهْمُ ، أَوْ تَصَوَّرَهُ الْوَهْمُ فَاللَّهُ تَعَالَى بِخِلَافِهِ ،** فهذه الكلمة على قصرها

وتقارب أطرافها قد جمعت محاسن التنزيه لذات الله تعالى عما لا يليق بها من مشابهة الممكنات ومماثلة المحدثات ، لأن الوهم إنما يتصور ما له نظائر في الوجود، والله تعالى ليس لذاته مماثل ، ولا يُعقل له مشابه ، وكلامه هذا دال على أن حقيقة ذاته ليس معلومة للبشر ، ولهذا قال : كل ما حكاه الفهم ، يشير به الى أن العقول قاصرة عن تصور تلك الماهية وتعقل أصل تيك المفهومية ، وهذا هو المختار عندنا كما قررناه في المباحث العقلية ، وإليه يشير كلام الشيخ أبي الحسين البصرى من المعتزلة وهو الرجل فيهم ، وهو رأى الخذاق من الأشعرية كأبي حامد الغزالي وابن الخطيب الرازى وغيرهم من جلة المتكلمين ، خلافاً لطوائف من المعتزلة والزيدية ومن الكلمات الوجيزة قوله عليه السلام : ( التوحيدُ إلاّ توهمه والعدلُ إلاّ تتهمه ) هاتان الكلمتان قد جمعنا وحازتا علوم التوحيد على كثرتها ، وعلوم الحكمة على غزارتها ، بألف عبارات وأجزها ولولم يكن فى كلام أمير المؤمنين فى علوم التوحيد والعدل إلاّ هاتان الكلمتان لكانتا كافيتين فى معرفة فضله ، وإحرازه لدقيق علم البلاغة وجزله ، فضلاً عما وراءهما من بوالغ الحكم الدينية ، ونواصع الآداب الحكيمية ، وقد أشرنا الى لطائف

كلامه وأوضحنا ما رزقنا الله من علوم أسرارهِ في شرحنا  
لكتاب نهج البلاغة، وإِنَّه لكتاب جامعٌ للصفات الحسنى  
وحائزٌ لخصال الدين والدنيا، وأما الإِطْنابُ فهو أوسعُ ما يكون  
واكثرُ في خُطْبِه وكتبه ، وما ذاك إلا لما تضمَّنه من المعاني  
واشتماله على الجَمِّ الغفير من النكت والأسرار ، ولنتقل من  
كلامه نُكْتًا تكون في الأيام غررًا وفي نُحُور الرواة ذررًا  
(النكته الأولى)

في التوحيد قال : أولُ الدين معرفته ، وكَمالُ معرفته  
توحيدُه ، وكَمالُ توحيدِه التصديقُ به ، وكَمالُ التصديقِ به  
الإِخْلاصُ له ، وكَمالُ الإِخْلاصِ له نَفْيُ الصفاتِ عنه ،  
لشهادة كلِّ صفة أنها غيرُ الموصوف ، وشهادة كلِّ موصوف  
انه غير الصفة ، فَمَنْ وَصَفَ اللهَ سبحانه فقد قرَّنه ، ومَنْ قرَّنه  
فقد ثنَّاه ، ومَنْ ثنَّاه فقد جزَّاه ، ومَنْ جزَّاه فقد جهَّله ، ومَنْ  
أشارَ إليه فقد حدَّه ، ومَنْ حدَّه فقد عدَّه ، ومَنْ قال فيمَ فقد  
ضمَّنه ، ومَنْ قال علامَ فقد أخلى منه ، فانظر إلى هذا التوحيد  
الذي لم يُسبق إليه ، والى هذا الإِخْلاصِ الذي لم يُزاحم عليه ،  
بل استبدَّ به من بين سائر الخلائق ، وتميَّز بالإِحاطة والاستيلاء

على تلك الحقائق ، وقد أشرنا الى هذه الرموز بهذه الأحرف  
وكيفية دلالتها على التوحيد ، والتنزيه في كتابنا الديباج الذي  
أمليناه شرحاً لكلامه فليطالع من هناك ، ثم قال : أنشأ الخلق  
إنشاءً ، وابتدأه ابتداءً بلا رويةٍ أجالها ، ولا تجربةٍ استفادها ،  
ولا حركةٍ أحدثها ، ولا همامةٍ نفسٍ اضطرب فيها ، فهذه  
نكتةٌ شريفةٌ من كلامه أشار فيها الى التوحيد ، وخلق العوالم  
كلها وإبداع المكونات

( النكتة الثانية )

في الاشارة من كلامه الى خلق السموات : ثم أنشأ  
سبحانه فتقَّ الأجواءَ وشقَّ الأرجاءَ وسكَّاتكَ الهواءَ ،  
فأجرى فيها ماءً متلاطماً تياره ، متراكماً زخاره ، حمله على متن  
الريح العاصفة ، والزَّعزَعِ القاصفة ، فأمرها برده ، وسلطها على  
شده ، وقرنها إلى حدده ، الهوى من تحتها فتيقُّ ، والماء من  
فوقها دفيق ، ثم أنشأ سبحانه ريحاً اعتقم مهبها ، وأدام مزيها ،  
وأعصف مجراها ، وأبعد منشأها ، فأمرها بتصفيق الماء  
الزَّخار ، وإثارة موج البحار ، فحخصته فحخص السقاء ،  
وعصفت به عصفتها بالفضاء ، تردُّ أوله على آخره ، وساجيه على

مأثره ، حتى عبَّ عبابه ، ورَمَى بالزَّبَدِ ركامه ، فرفعه في هواء  
مُنْفَتِقٍ ، وجوَّ مُنْفَهَقٍ ، فسَوَّى منه سبعَ سموات ، جعلَ  
سُفْلَاهنَ مَوْجاً مكفوفاً ، وعلَيَّاهنَ سَقْفاً محفوظاً ، وسُمِّكاً  
مرفوعاً بغيرِ عَمَدٍ يَدْعَمُهَا ، ولا دَسَارٍ يَنْظِمُهَا ، ثم زَيَّنَّهَا بزينةِ  
الكواكب ، وضياءِ الثواب ، وأجرى فيها سراجاً مستطيراً ،  
وقرأ منيراً ، في فلكِ دائرٍ ، وسقفِ سائرٍ ، ورقمِ حائرٍ ،  
فهذه نبذةٌ من كلامه أشار بها الى كيفية إبداع السموات

( النكتة الثالثة )

في صفة الأرض ودخوها على الماء قال : كَبَسَ الأرضَ  
على مَوْرَأَمَواجٍ مُسْتَفْحَلَةٍ وأُجَجِجَ بِحَارٍ زَاخِرَةٍ تَلْتَطِمُ أَوَاذِيَّ  
أَمَواجها ، وتُصَفِّقُ مُتَقَاذِفَاتِ أُنْبَاجِها ، وترغُو زَبَدًا كَالْفُحُولِ  
عند هَيَاجِها ، نَفْضَعُ جِماحُ الماءِ المُتَلَطِّمِ لِثِقَلِ حَمَلِها ، وسكَنَ  
هَيَجُ ارْتِمَائِهِ اذْوَطَّتُهُ بِكَلِّكَلِها ، وذَلَّ مُسْتَخْذِيًا اذْ  
تَمَعَّكَتْ عَلَيْهِ بِكِوَاهِلِها ، فأصبح بعد اصطخاب أمواجه  
ساجياً مقهوراً ، وفي حِكْمَةِ الذَّلِّ مُنْقَاداً أُسِيرًا ، وسكنت  
الأرضُ مَدْحُوَّةً في لُجَّةِ تِيَّارِهِ ، وَرَدَّتْ مِنْ نَحْوَةِ بَأْوِهِ  
واعْتَلَّاهُ ، وشمُوخَ أَنْفِهِ وَسُمُوَّ غُلُوَّائِهِ ، وكَعَمَّتُهُ عَلَى كِطَّةِ جَرِيَّتِهِ ،

فهمد بعد نزواته ، وبعد زيفان وثباته ، فسكن هيج الماء من  
تحت أكتافها ، وحمل شواحق الجبال البذخ على أكتافها ،  
فهذه منه إشارة الى خلقه الارض كما ترى

( النكتة الرابعة )

في خلق الملائكة ثم خلق سبحانه لإسكان سمواته  
وعمارة الصفيح الأعل من ملكوته خلقاً بديعاً من ملائكته ،  
وملاً بهم فرُوجٍ فجأجها ، وحشاً بهم فتوق أجوائها ، وبين  
فجوات تلك الفروج زجل المسبحين منهم في حظائر القدس  
وسررات الحُجب ، وسرادات المجد ، ووراء ذلك الرجيج  
الذي تستك منه الأسماع ، سبحات نور تُردعُ الأبصارُ  
عن بلوغها ، فتقفُ خاسئةً على حدودها ، أنشأهم على صور  
مختلفات ، وأقدارٍ متفاوتات ، أولى أجنحة تسبح جلال  
عزته ، لا ينتحلون ما ظهر في الخلق من صنعه ، ولا يدعون  
أنهم يخلقون شيئاً مما انفرد به ، بل عباد مكرمون ، لا  
يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، جعلهم فيما هنالك أهل  
الأمانة على وحيه ، وحملهم الى المرسلين ودائع أمره ونهيه ،  
وعصمهم من ريب الشبهات ، فما منهم زائف عن سبيل

مرضاته ، وأمدَّهم بفوائد المعونة ، وأشعر قلوبهم تواضع إخبآت  
السكينة ، وفتح لهم أبواباً ذللاً الى تماجيده ، ونصب لهم  
مناراً واضحاً على أعلام توحيده ، لم تُثقلهم مؤصَّرات الآثام ،  
ولم ترثلهم عقبُ الليالي والأيام ، ولم ترَم الشكوك بنوازعها  
عزيمة إيمانهم ، ولم تعترك الظنون على معاهد يقينهم ، ولا  
قدحت قاذحة الإحن فيما بينهم ، ولا سلبتهم الحيرة ما لاق  
من معرفته بضائهم ، وما سكن من عظمتِه وهيبته جلالاته في  
أثناء صدورهم ، فلم تطمع فيهم الوسوس فتفترع برينها على  
فكرهم الى آخر كلامه في أحوالهم وصفاتهم ، ولولا خوف  
الاطالة لنقلنا كل كلامه في ذكر خواصهم

(النكته الخامسة)

في ذكر علم الله وإحاطته بكل المعلومات قال : عالم السرِّ  
من ضائر المضميرين ، ونجوى المتخافين ، وخواطر رجم  
الظنون ، وعقد عزمات اليقين ، ومسارب إيماض الجفون  
وما ضمَّنته أكناف القلوب ، وغايات الغيوب ، وما أصغت  
لاستراقه مصايخ الأسماع ، ومصائف الذر ومشاتي الهوام ،  
ورجع الحنين من المولهاة ، وهمس الأقدام ، ومنفتح الثمرة

من ولائح غلب الأكلام ، ومنقمع الوحوش من غيرات  
الجمال وأوديتها ، ومختبي البعوض بين سوق الأشجار وأحيتها ،  
ومغرز الأوراق من الأفنان ، ومحط الأمشاج من مسارب  
الأصلاب ، وناشئة الغيوم ومُتلاحمها ، ودُرُور قطر السحاب  
ومتراكمها ، وما تسفى الأعاصير بذيوها ، وتغفو الأمطارُ  
بسُيولها ، وعموم نبات الأرض في كُثبان الرمال ومستقر  
ذوات الأجنحة . بذرا سناخيب الجبال ، وتغريد ذوات  
المنطق في دياجير الأوكار ، وما أودعته الأصدافُ  
وحضنت عليه أمواج البحار ، وما غشيتهُ سُدفة ليل ، وذر  
عليه شارق من نهار ، وما اعتقت عليه أطباق الدياجير  
وسبُحات الأنوار ، وأثر كل خطوة وحس كل حركة ،  
ورجع كل كلمة ، وتحريك كل شفة ، ومستقر كل نسمة ،  
ومثقال كل ذرة ، وهماهم كل نفس هامة ، وما عليها من  
ثمرة شجرة أو ساقط ورقة ، أو قرار نطفة ، أو نقاعة دم ،  
أو مضغعة ، أو ناشئة خلق وسلالة ، فلينظر الناظر ما تضمنه  
كلامه وهنا من الإشارة الى كيفية الإحاطة له تعالى

بالمعلومات بالطف عبارة وأرشتها ، وهذا من أعجب أما كن  
الاطناب وأرفع مراتبه

( النكتة السادسة )

في تزيه الله تعالى عن مشابهة الممكنات واستحالة  
الأعضاء عليه ، قال فأشهد أن من شبهك بتباين أعضاء  
خَلْقِكَ وتلاحمِ حقائقِ مفاصلهم المحتجبة بتدبير حكمتك لم  
يَعْقُدْ غَيْبُ ضميره على معرفتك ، ولم يُبَاشِرْ قلبه اليقين بأنه  
لا نَدَّ لك ، فكأنه لم يسمع تَبَرُّؤَ التابعين من المتبوعين اذ  
يقولون ( تالله إن كنا في ضلالٍ مبينٍ إذ أنسوينا ربَّ  
العالمين ) كذب العادلون بك إذ شبهوك بأصنامهم ، ومخلوك  
حليّة المخلوقين بأوهامهم ، وجزأوك تجزئة المجسمات بخواطرهم ،  
وقدروك على الخليفة المختلفة القوى بقرائح عقولهم ، فأشهد  
أن من ساواك بشيء من خَلْقِكَ فقد عدل بك ، والعدل بك  
كافر بما تنزلت به مُحْكَمُ آياتك ونطقت عنه شواهد حجج  
بيناتك ، وأنت أنت الله لم تتناه في العقول فتكون في  
مهبِّ فكرها مُكَيِّفًا ، ولا في روِيَاتِ خواطرها محدودًا  
مُصَرِّفًا ، فظاهر كلامه دالٌّ على إكهار المشبهة ، وقد رمزنا في

شرحنا لكلامه هذا الى تفاصيل القول في التشبيه وذكرنا مَنْ  
يَكْفُرُ وَمَنْ لَا يَكْفُرُ مِنَ الْمَشْبَهَةِ مَا خِلا الْقَوْلِ فِي إِكْفَارِ مَنْ  
يَكْفُرُ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ ، وَحَقِيقَةَ الْإِكْفَارِ بِالتَّوْبِيلِ ، فَقَدْ  
أَوْدَعْنَاهُ كِتَابَنَا الَّذِي أَمَلِينَاهُ فِي الْإِكْفَارِ وَذَكَرْنَا فِيهِ مَا يَكْفِي  
وَيَسْفِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ

( النكتة السابعة )

في الإشارة الى كيفية خلق آدم قال فيه ثم جمع من  
حَزَنَ الْأَرْضِ وَسَهَلَهَا ، وَعَذَّبَهَا وَسَبَّخَهَا ، تَرْبَةً سَنَهَا بِالْمَاءِ  
حَتَّى خَلُصَتْ ، وَلَا طَهَّا بِالْبَلَّةِ حَتَّى لَزَبَتْ ، فَجَبَلَ مِنْهَا صُورَةَ  
ذَاتِ أَعْضَاءٍ وَوُصُولِ ، وَأَعْضَاءٍ وَفُصُولِ ، أَجْمَدَهَا حَتَّى  
اسْتَمْسَكَتْ ، وَأَصْلَدَهَا حَتَّى صَلَّصَتْ ، لَوْقَتٍ مَعْدُودِ ، وَأَمَدٍ  
مَعْلُومِ ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ فَمَثَلَتْ إِنْسانًا ذَا أذْهَانٍ يُجِيلُهَا ،  
وَفِكْرٍ يَتَصَرَّفُ بِهَا ، وَجَوَارِحٍ يَسْتَعْمِدُهَا ، وَأَدْوَاتٍ يَقْلِبُهَا ،  
وَمَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَالْأَذْوَاقِ ، وَالْمَشَامِ ،  
وَالْأَلْوَانِ ، وَالْأَجْنَاسِ ، مَعْجُونًا بَطِينَةً الْأَكْوَانِ الْمُخْتَلِفَةِ ،  
وَالْأَشْبَاهِ الْمُؤْتَلِفَةِ ، وَالْأَضْدَادِ الْمُتَعَادِيَةِ ، وَالْأَخْلَاطِ الْمُتَبَايِنَةِ ،  
مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ ، وَالْبَلَّةِ وَالْجُمُودِ ، وَالْمَسَاءَةِ وَالسُّرُورِ ، وَاسْتَأْدَى اللَّهُ

سبحانه الملائكة وديعته لديهم ، وعهد وصيته اليهم في  
الاذعان بالسجود له ، والخشوع لتكريمته ، فقال سبحانه  
( اسجدوا لآدم فسجدوا الا إبليس ) ثم أسكنه دارا  
أرغد فيها عيشه ، وأقر فيها محلته ، فهذا كلام من أخذ البلاغة  
بزماتها وكان هو المدعو بصاحبها وإمامها ، لا يقصر عن بلوغ  
شأوها ولا يصعب عليه نخوة بأوها  
( النكتة الثامنة )

في ذكر إبليس وإغوائه لآدم قال ثم إن إبليس اعترته  
الحمية ، وغلبت عليه الشقوة وتعزز بمخلقة النار ، واستوهن  
خلق الصلصال ، فأعطاه الله النظرة استحقاقا للسخط ،  
واستتماما للبليّة ، وإنجازا للعدة فقال ( فإنك من المنظرين إلى  
يوم الوقت المعلوم ) فلما أسكنه جنته ، وحذره إبليس  
وعداوته ، فاغتره إبليس نفاسةً عليه بدار المقام ، ومرافقة  
الأبرار ، فباع اليقين بشكّه ، والعزيمة بوهنه ، واستبدل  
بالجدل وجلا ، وبالاغترار ندما ، ثم بسط الله سبحانه له في  
توبته ، ولقاءه كلمة رحمة ووعده المرد إلى جنته ، وأهبطه  
إلى دار البليّة وتناسل الذرية

(النكته التاسعة)

يذكر فيها بعثة الأنبياء قال : ثم إنه تعالى اصطفى من ذريته يعني آدم أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم ، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم ، لما بدّل أكثر خلقه عهد الله اليهم ، فجهلوا حقه ، واتخذوا الأنداد معه واجتأههم الشياطين عن معرفته ، واقتطعتهم عن عبادته ، فبعث فيهم رسوله ، وواتر اليهم أنبياءه ، ليستأدوهم ميثاق فطرته ، ويذكروهم منسى نعمته ، ويحتجوا عليهم بالتبليغ ويشيروا لهم دفائن العقول ، ويرووهم آيات المقدرة ، من سقف فوقهم مرفوع ، ومهاد تحتهم موضوع ، ومعايش تحييهم ، وآجال تفتنيهم ، وأوصاب تهرمهم ، وأحداث تتابع عليهم ، ولم يخل الله سبحانه خلقه من نبي مرسل ، أو كتاب منزل ، أو حجة لازمة ، أو محجة قائمة ، رسل لا تقصر بهم قلة عددهم ، ولا كثرة المكذبين لهم من سابق سمى له من بعده ، أو غابر عرفه من قبله ، على ذلك نسلت القرون ، ومضت الدهور ، وسلفت الآباء ، وخلفت الأبناء ، فهذه نكته عجيبة ضمنها ما كان من بعثة الأنبياء وتبليغهم للشرائع وصبرهم على أداء ما حملوه

( النكتة العاشرة )

يذكر فيها بعث الرسول صلى الله عليه وسلم ، واصطفاء  
الله له قال ثم إنَّ الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم لإنجاز  
عدته ، وإتمام نبوته ، مأخوذاً على النبيين ميثاقه ، مشهوره  
سِماته ، كريماً ميلاده ، وأهل الأرض يومئذ ملأ متفرقة ،  
وأهواءً منتشرة ، وطوائف متشتتة ، بين مشبهٍ لله بخلقهِ ،  
أو مُجدِّ في اسمه ، أو مشيرٍ إلى غيره ، فهداهم به من  
الضلالة ، وأنقذهم بمكانه من الجهالة ، ثم اختار سبحانه  
لمحمد صلى الله عليه وسلم لقاءه ، ورَضِيَ له ما عنده ،  
وأكرمه عن دار الدنيا ، ورَغِبَ به عن مُقام البلوى ،  
فقبضه إليه كريماً ، صلى الله عليه وعلى آله ، ثم خلف فيكم  
ما خلفت الأنبياء في أممها ، كتاب ربكم ميئناً حلالةً ،  
وحرامه ، وفضائله وفرائضه وناسخه ومنسوخه ورُخصه  
وعزائمُه ، فهذه النكت قد جمعناها من كلامه ههنا مثلاً للإطناب  
ليتفطن الناظر أنه لا وادى من أودية البلاغة الا وقد سلكه ،  
ولا زمام من أزمّة الفصاحة الا وقد استولى عليه بفكره  
وملكه ، فصار أوفر البلغاء في البلاغة نصيباً وسهماً ، وأكثرهم

بها في الإحاطة علما وفهماً ، وحقَّ لكلامه عند ذلك أن يقال  
فيه إنه كُنِيفٌ مِثْلِيٌّ عِلْمًا

( النوع الرابع )

فيما ورد من كلام البلغاء في الإطناب ، فمن ذلك ما قاله  
ابن الأثير في وصف بستان : هُوَجْنَةٌ ذاتُ ثَمَارٍ مُخْتَلِفَةِ الْغَرَابَةِ ،  
وَتُرْبَةٌ مُنْجِبَةٌ وَمَا كُلُّ تُرْبَةٍ تُوصَفُ بِالنَّجَابَةِ ، ففيها المِشْمُشُ  
الذي يسبق غيره بقدمه ، وَيَقْدِفُ أَيْدِي الْجَانِينِ بِنُجُومِهِ ،  
فهو يسمو بطيب الفرع والنَّجَارِ ، ولو نُظِمَ في جيدِ الحسنة  
لأشْتَبَهَ بِقِلَادَةٍ مِنْ نُضَارٍ ، وله زمنُ الرَّبِيعِ الذي هو أعدل  
الأزمان ، وقد شَبَّهَ بِسِنِّ الصَّبَا فِي الْأَسْنَانِ ، وفيها التَّفَاحُ  
الذي رَقَّ جَالِدُهُ ، وَعَظُمَ قَدُّهُ ، وَتَوَرَّدَ خَدُّهُ ، وَطَابَتْ  
أَنْفَاسُهُ ، فَلَا بَانَ الْوَادِي وَلَا رَنَدُهُ ، وإذا نُظِرَ إِلَيْهِ وَجِدَ مِنْهُ  
حِظُّ الشَّمِّ وَالنَّظَرِ ، وَنَسَبَتْهُ مِنْ سُرْرِ الْغَزْلَانِ أَوْلَى مِنْ نَسَبَتْهُ  
إِلَى مَنَابِتِ الشَّجَرِ ، وفيها العنبُ الذي هو أَكْرَمُ الثَّمَارِ طِينَةً ،  
وَأَكْثَرُهَا أَلْوَانُ زِينَةٍ ، وَأَوْلُ غَرْسٍ اغْتَرَسَهُ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ  
عند خروجه من السفينة ، فُقِطْفُهُ يَمِيلُ بِكَفِّ قَاطِفِهِ ، وَيُغْرَى  
بِالْوَصْفِ لِسَانًا وَاصْفَهُ ، وفيها الرُّمَانُ الذي هو طَعَامٌ وَشَرَابٌ ،

وبه شُبِّهتُ نُهُودُ الكَعَابِ ، ومن فضله انه لا نُوى له فيرْمِي نَوَاهُ ، ولا يُخْرِجُ اللُّوْلُوَ والمرْجَانُ من فَاكِهَةٍ سِوَاهُ ، وفيها التينُ الذي اُقْسِمَ اللهُ به تنويهاً بذكره ، واستترَ آدَمُ بورقه إِذْ كَشَفَتِ المَعْصِيَةُ من ستره ، وخصَّ بطول الأَعْنَاقِ ، فما يُرى بها من مَيْلٍ فذاك من نشوة سُكْرِهِ ، وقد وُصِفَ بأنه رَاقِ طَعْمًا ، ونَعْمَ جَسْمًا ، وقيل هذا كُنَيْفٌ مُلِيٌّ شُهْدَا ، لا كُنَيْفٌ مُلِيٌّ عِلْمًا ، وفيها من ثمرات النخيل ما يُزْهِى بلونه وشكله ، ويشغلُ بلذّة منظره عن لذّة أكله ، وهو الذي فضل ذواتِ الأَفْنَانِ بعُرْجُونِهِ ، ولا تماثلُ بينه وبين الحُلُوءِ فيقال: هذا خَلَقَ اللهُ فَأَرُونِي ماذا خَلَقَ الذين من دونه، وفيها غير ذلك من أشكالِ الفَاكِهَةِ وأصْنَافِها، وكلُّها معدودٌ من أوساطها لا من أطرافها ، ولقد دخلتها فاستهوتني حسداً ، ولم أَلَمْ صاحبها على قوله (لَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا) . فما هذا حاله من الأوصاف يقال له إِطْنَابٌ ، لأن كل صفة لم تخلُ عن فائدة جديدة (ومن) الأَمْثَلَةُ الرَّائِقَةُ في الإِطْنَابِ ما قاله ابن الأثير أيضاً على جهة المِقابَلَةِ لا يُجَازِ كتاب طاهر بن حسين الى المأمون لما هزَمَ عسكر عيسى ابن مَاهَانَ وقاتله ، وقد ذكرنا كتابه الذي أوجز فيه الى المأمون فقال ابن الأثير مقابلاً له

بالإطنا ب فيه ، وهو قوله : صدر الكتاب وقد نصرنا بالفئة  
القليلة على الفئة الكثيرة، واتقلبنا باليد المملأى والعين القريرة،  
وكان انتصاره بحمد أمير المؤمنين لا بحمد نضله، والجِدُّ أغنى  
عن الجيش وإن كثر إمدادُ خيله ورجله، وجيء برأس عيسى  
بن مَاهَانَ وهو على جسدٍ غير جسده، وليس له قدمٌ تسقى ولا  
يدٌ فيقالَ يَبْطِشُ بيده، ولقد طال وطوله مؤذِنٌ بقصر شأنه،  
وحسدت الضباعُ الطيرَ على مكانها منه وهو غير محسود على  
مكانه، وأحضرَ خاتمه وهو الخاتم الذي كان الأمرُ يجري على  
نقش أسطره، وكان يرجو أن يصدرَ كتابَ الفتحِ بختمه فحال  
ورودُ المنية دونَ مصدره، وكذلك البغيُّ مرتعه وَيِيلُ،  
ومصرعه جليل، وسيفه وإن مضى فإنه عند الضرب كليل،  
وقد نطق الفألُ بأن الخاتم والرأسَ مُبَشِّرَانِ بالحصول على  
خاتم الملك ورأسه، وهذا الفتحُ أساسٌ لما يُستقبل بناؤه  
ولا يستقرُّ البناءُ إلا على أساسه، والعساكرُ التي كانت على  
أمير المؤمنين حرباً صارت له سلماً، وأعطته البيعة علماءً  
بفضله، وليس من بايع تقليداً كمن بايع علماء، وهم الآن  
مصرفون تحت الأوامر، مُمتَحِنُونَ بكشف السرائر، مُطِيفُونَ

باللواء الذي خصّه الله باستفتاح المقالد واستيطاء المنابر ، وكما  
سرتْ خطوات القلم في أثناء هذا القرطاس ، فكذلك سرت  
طلائع الرعب قبل الطلائع في قلوب الناس ، وليس في البلاد  
ما يُغلق بمشيئة الله باباً ، ولا يحسر نقاباً ، وعلى الله تمام النعمة  
التي افتتحها ، وإجابة أمير المؤمنين الى مقترحاته التي اقترحها ،  
ولنكتف بهذا القدر من أمثلة الإطناب فيه كفاية ، فأما  
الاطنابات الشعرية فتشتمل عليها الدواوين ، ومن أراد  
الاطلاع على الإطناب الشعري في المدح فليطالع ديوان ابى  
الطيب المتنبى فانه يجد فيه في الكافوريات والسيّفيات ، إطالة  
في الإطناب كثيرة وغيره من الدواوين كأبى تمام وأبى  
عبادة البحرى

### \* الفصل الثانى \*

( فى المبادئ والافتتاحات )

اعلم أن هذا الفصل ركن من أركان البلاغة ، وحقيقته  
آئمة الى أنه ينبغى لكل من تصدى لمقصد من المقاصد  
واراد شرحه بكلام أن يكون مفتتح كلامه ملائماً لذلك المقصد  
دالاً عليه ، فما هذا حاله يجب مراعاته فى النظم والنثر جميعاً ،

ويستحبُّ التزامه في الخطب والرسائل والتصانيف ، وهكذا حال التهاني والتعازي يكون مبدؤها وتصديرها بما يناسب ذلك المعنى ليكون معلوماً من أول وهلة ، فحيثُ يكون المطلعُ جارياً على ما ذكرناه فهو من الافتتاح الحسن ، وحيث يكون جارياً على عكسه فهو معدودٌ من القبيح ، فهذان طرفان نذكر ما يتعلق بكل واحد منهما

(الطرف الأول) في ذكر الافتتاحات الرائعة ولنورد

فيها أمثلة أربعة

(المثال الأول) من كتاب الله تعالى وذلك أن الله تعالى لما أذن بالفتح على رسوله صلى الله عليه وسلم وكان هو الغاية والمنتهى بطي بساط الرسالة لما ظهر نور الإسلام . ومدَّ بجرانه على جميع الأديان ، فأنزل الله تعالى على رسوله آية هي مناسبة لما هو فيه من إشارة الإيمان ، وبلوغه الغاية ويذكر منه عليه بما أظهر على يديه من ذلك فقال فيها (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً) فانظر الى هذه الآية ما اعجب ملائمتها لهذه الحالة ، وأشدَّ تصريحها بالمقصود من أول وهلة ،

فصدر الآية بذكر الفتح اظهارا للمنة ، وتكملة للنعمة ، ثم أردفه بذكر المغفرة إعظاماً لحاله ، ورفعاً من منزلته ، وتقريراً لنفسه وتسلياً لما كابد قبله من عظم المشقة وشدة المحنة ، ثم وجه التعليل بالمغفرة الى الفتح ، إيذاناً بأنه انما استحق الغفران لما كان منه من الصغائر من أجل ما استحق على العناية في الفتح ومكابدة شدائده ، فلا أجل ذلك كان مستحقاً للأجر الأعظم الذي يكون ثوابه مكفراً لتلك الصغائر التي صرح بها الشرع وجوزها عليه ، (فأما) الزمخشري فقد قال في تفسيره انه ليس وارداً على جهة التعليل على أحد وجهيه ، وإنما هو واردٌ على جهة التعديد لما أنعم الله عليه من غفران ذنوبه ، وإتمام نعمته عليه والهداية والنصر

(فأما) من قال ان اللام للعاقبة كالتى في قوله تعالى (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً) فانما كان ذلك من أجل ضيق العطن ، وعدم الوطأة ورُسوخ القدم في علوم البيان ، وبعدهم عن الإحاطة بمقائق التشبيه والاستعارة ، فلا جرم عولوا على هذه التأويلات الركيكة والمعاني البادرة ، ونزول هذه الآية انما كان قبل الفتح بعد رجوعه من الحديبية ، وبعد عمرة القضاء ، أنزلها الله تعالى عليه بشارة له وشرحاً لصدره ،

وتسليّةً على قلبه بما وعدّه من النصر والفتح والهداية والإعزاز،  
وانما جاء بلفظ الماضي مبالغةً فيه وتوكيداً ، وكأنه لشدة تحقّقه  
وثبوته كأنه قد مضى وتقضى فأشبهه الماضي في تقريره ، ومن  
هذا قوله تعالى في افتتاح سورة النساء (يأيتها الناس اتقوا ربكم  
الذي خلقكم من نفس واحدةٍ وخلق منها زوجها وبثّ منهما  
رجالاً كثيراً ونساءً) لأنه لما كان غرضه بيان الأحكام  
المشروعة في حقهن من الطلاق ، والميراث ، وغير ذلك من  
الأحكام ، صدر السورة بما يكون فيه دلالةٌ وتنبيهٌ على  
ذلك ، وخالف ما ذكره في صدر سورة الحج لما ذكره في  
سورة النساء حيث قال (يأيتها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة  
الساعةِ شيءٌ عظيمٌ) لأنه لما كان غرضه ذكر البعث  
والاحتجاج عليه والنعي على منكريه صدره بما يلائمه  
ويناسبه من ذلك ، فافتتاح كل واحدةٍ من السورتين  
مخالفٌ للآخرى ، لكنه مناسبٌ لما يريد ذكره من كل  
واحد منهما من الأغراض والمقاصد التي ضمنها فيهما ،  
فافتتاحهما ، ملائمٌ لهما كما ترى ، ولهذا فإن الله تعالى لما أراد  
شهر السيف وأذن للرسول في القتال وكان بينه وبين ناس  
من العرب عهد وإخلافٌ صدر سورة التوبة . يذكر

البراءة لما أراد من قطع تلك العهود ونبذها ، فافتتاحها مناسب لما يريد ذكره فيها من المباينة وشن الغارات وسلّ السيف

(المثال الثاني) ما ورد من السنة الشريفة ، فمن ذلك ما رواه ابن عمر رضي الله عنه قال : كان يعلمنا خطبة الحاجة بقوله الحمد لله نحمدُه ، ونستعينُه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يضلّل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، فهذه الكلمات كانت يذكرها اذا أراد حاجة من الحوائج من نكاح ، أو موعظة ، أو فصل قضية ، أو غير ذلك من سائر الحاجات ، فانظر الى اختياره صلى الله عليه وسلم في افتتاح كل أمر كيف صار ملائما للمطلوب من جميع الأفعال المطلوبة ، فافتتح بالتعريف والإقرار باستحقاق الحمد لله في كل حال لا يختص وقتاً دون وقت ، ثم أردفه بتجديد الحمد في مستقبل الزمان وحاله ، ولهذا وجه الأول بالاسم ، والثاني بالفعل المضارع ، ليبدل بالأول على الثبوت والاستقرار ، ويبدل بالثاني على التجدد والحدوث ، ثم عقب بذكر الاستعانة لما كان محتاجا اليها في كل فعل ، وهي

الألطف الخفية من جهة الله تعالى ، لأن اللطف من الله تعالى من أجله يسهل كل عسير ، ويلين كل قاس ، ثم أردفه بالاستعاذة بالله من شرور الأَنْفُس ، لما فيه من الضرر العظيم من أجل دُعاء النفوس الى كل شر ، وهي مطبوعةٌ على أنها أمارةٌ بالسوء في كلِّ أحوالها ، ثم عقبه بالاستعاذة من السيئات ، فإنها مبعدةٌ عن الخير ، داعيةٌ الى الشر ، فمن أجل هذه المناسبة جعل هذا الدعاء ديباجةً لكل مطلوب لما اختص من الملائمة بما يُذكر بعده

ومن ذلك افتتاحه صلى الله عليه وسلم في الدعاء لأبي سلمة عند موته حيث قال : اللهم ارفع درجته في المهديين واخلفه في عقبه من الغابرين ، واغفر لنا وله يا رب العالمين ، فانظر الى مناسبة هذا الافتتاح للحالة التي وقع فيها فافتحه بذكر المهيم الذي يفتقر اليه المدعو له في تلك الحال ، من رفع الدرجة في الآخرة ، ثم أردفه بذكر المهيم الذي يؤثره المدعو له من صلاح حال عقبه من بعده في الدنيا ، ثم ختمه بالجمع بين الداعي والمدعو له ، وهذا من الافتتاح البليغ الذي يعجز عن الإتيان بمثله كلُّ بليغ ، ومن أنس بالأحاديث النبوية وكان له مطالعة لها فإنه يجد فيها ما يكفي ويشفي

(المثال الثالث) من كلام امير المؤمنين كرم الله وجهه  
وله عليه السلام من الافتتاحات الرشيقه في خطبه ، ومواعظه ،  
وكتبه ، ما يفوق على كل كلام فمن ذلك ما ذكره بعد تلاوته  
( آلَهَا كُمُ التَّكَاثُرُ ) فَإِنَّ السَّبَبَ فِي نَزْوِلِهَا هُوَ أَنَّ بَنِي  
عَبْدِ مَنْفٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَبَنِي سَهْمٍ ، أَكْثَرُوا الْمَارَاةَ ، أَيُّهُمْ  
أَكْثَرُ عَدَدًا ، وَأَعْظَمُ جَمْعًا ، فَكَثَرَهُمْ بَنُو عَبْدِ مَنْفٍ ، فَقَالَ  
بَنُو سَهْمٍ : إِنَّ الْبَغْيَ أَهْلَكَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَعَادُونَا بِالْأَحْيَاءِ  
وَالْأَمْوَاتِ فَكَثَرَهُمْ بَنُو سَهْمٍ ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ ذِمًّا لَهُمْ عَلَى  
ذَلِكَ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَعْنَى ذَلِكَ : يَا مَرَامًا مَا أَبْعَدَهُ ،  
وَزُورًا مَا أَغْفَلَهُ ، وَخَطَرًا مَا أَفْطَعَهُ ، لَقَدْ اسْتَخْلَوْا مِنْهُمْ أَيْ  
مُدَّكِرٍ ، وَتَنَاوَشُوهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ بِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ ،  
أَمْ بَعْدِيدِ الْهَلَكِيِّ يَتَكَاثَرُونَ ؟ فَتَأَمَّلْ هَذَا الْإِفْتِتَاحَ ، مَا أَجْمَعَهُ  
لِلْمَقْصُودِ وَأَشَدَّ مِلَاطَمَتَهُ لِمَرَادِ الْآيَةِ ، مَعَ الْإِخْتِصَارِ الْبَالِغِ  
وَالْإِيْجَازِ الْبَدِيعِ الَّذِي يَزِيدُ تَفْصِيلُهُ مِنْ بَعْدُ فِي أَثْنَاءِ الْخُطْبَةِ  
وَمِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ ( رِجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً  
وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ) وَمَا بَرِحَ اللَّهُ ، عَزَّتْ آلاؤُهُ فِي الْبُرْهَةِ  
بَعْدَ الْبُرْهَةِ ، وَفِي أَرْزَامِ الْفَتَرَاتِ عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ

وَكَلِمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ ، فَاسْتَصْبَحُوا بِنُورِ يَقِظَةٍ فِي  
الْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ وَالْأَفْتِدَةِ ، يُدَكَّرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ،  
وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ ، بِمَنْزِلَةِ الْأَدَلَّةِ فِي فَلَوَاتِ الْقُلُوبِ ، مَنْ  
أَخَذَ الْقَصْدَ حَمَدُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ وَبَشَّرُوهُ بِالنَّجَاةِ ، وَمَنْ أَخَذَ  
يَمِينًا وَشِمَالًا ذَمُّوا إِلَيْهِ الطَّرِيقَ ، وَحَذَّرُوهُ مِنَ الْهَلَاكَةِ ،  
وَكَانُوا كَذَلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ ، وَأَدَلَّةَ تِلْكَ الشَّبَّهَاتِ  
وَمَنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ قَوْلَهُ تَعَالَى ( يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ  
مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ) أَدْحَضُ مَسْئُولَ حُجَّةً ، وَأَقْطَعُ  
مُفْتَرِّ مَعْدَرَةً ، لَقَدْ أَبْرَحَ جَهَالَةً بِنَفْسِهِ ، يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ  
مَا جَرَّأَكَ عَلَى ذَنْبِكَ ، وَمَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ، وَمَا آتَسَكَ بِهَلَاكَةِ  
نَفْسِكَ ، أَمَا مِنْ دَائِكَ بُلُولٌ ، أَلَيْسَ مِنْ نَوْمَتِكَ يَقِظَةٌ ، أَمَا  
تَرْحَمُ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَرْحَمُ مِنْ غَيْرِكَ ، فَانظُرْ أَيُّهَا الْمُتَأَمِّلُ إِلَى  
هَذِهِ الْمَطَالِعِ فِي الْوَعْظِ وَالزُّجْرِ ، وَهَذِهِ الْإِفْتِاحَاتِ بِمَعَانِي هَذِهِ  
الْآيِ كَيْفَ طَبَّقَ مَفَاصِلَهَا وَلَمْ يَخَالَفْ تَجْرَاهَا ، وَلَا أَخَذَ فِي  
غَيْرِ طَرِيقِهَا ، وَأَتَى بِمَا يَلَائِمُ مَعْنَاهَا ، وَيُوَافِقُ تَجْرَاهَا ، وَيَحْتَقِقُ  
مَغْزَاهَا بِالْكَلَامِ الَّذِي تَبَهَّرُ الْقَرَائِحَ فَصَاحَتُهُ ، وَتُدْهِشُ الْعُقُولَ  
جِزَالَتُهُ وَبِلَاغَتُهُ ، وَلِلَّهِ دَرُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لَقَدْ فَاقَ فِي كُلِّ خِصَالِهِ ،

ونكص كلُّ بليغ أن يحدو على مثاله ، خاصة فيما يتعلق  
بالخطب في التوحيد فانها افتتاحات ملائمة للمقصود أشدَّ  
الملائمة

### (المثال الرابع)

ما ورد من كلام البلغاء في ذلك ، وأحسن ما قيل في  
الافتتاح ما قاله أبو تمام في قصيدته التي امتدح بها المعتصم  
عند فتحه لمدينة عمورية ، وقد كان أهل التنجيم زعموا أنها  
لا تفتح عليه في ذلك الوقت ، وأفاض الناس في ذلك حتى  
شاع الأمر وصار أخذوثة بين الخلق ، فلما فتحت عليه ، بنى  
أبو تمام مطلع القصيدة على هذا المعنى مكذباً لهم فيما قالوه ،  
ومادحاً للمعتصم في شدة البأس وإعراضه عن التطير  
بالنجوم فقال

السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكتب

في حده الحدُّ بينَ الجدِّ واللعب

بيضُ الصفائح لا سودُ الصحائفِ في

متونهنَّ جلاءُ الشكِّ والرَّيبِ

وقال معرضاً باهل النجوم وانه لا عبرة بما قالوه في ذلك

والعلم في شُعبِ الأرماحِ لامعةً  
بين الحميسين لافي السبعة الشهب  
أين الروايةُ أم أين النجوم وما  
صاغوه من زُخرفٍ فيها ومن كذبٍ  
تمخُّصاً وأقاويلاً مَلْفَقَةً

ليست بنبعٍ إذا عدتُ ولا غربٍ  
فهذا المطلع من أجود ما يأتي في هذا المعنى ومن  
مستظرفاته ومن ذلك ما قاله أبو الطيب المتنبى في قصيدة يمدح  
بها كافوار وكان جرت بينه وبين سيده سيف الدولة وحشةٌ  
فقال في ذلك

حَسَمَ الصلحُ ما اشتَهته الأعدى  
وأذاعته ألسُنُ الحسادِ

فهذا وما شا كاه من بديع الافتتاحات ونادرها لما فيه  
من إفادة الغرض المطلوب من أول وهلة ، ومن جيد ما يُذكر  
في المطالع الحسنة ما حكاه أبو العباس المبرد أن هرونَ  
الرَّشيد غزا يعقُورَ ملك الروم وكان نصرانياً فخضع له وبذل  
الجزية ، فلما عاد هرونُ استقرَّ بمدينة الرِّقَّة ، وسقط الثلجُ ،

تَقْضَ يَعْفُورُ الذمة والعهد فلم يجسر أحدٌ على إعلام هرون  
لأجل هيئته في صدور الناس ، وبذل يحيى بن خالد للشعراء  
الأموال النفيسة على أن يقولوا أشعاراً في إعلامه ، فكلهم  
أسفق من لقائه بمثل ذلك إلا شاعراً من أهل جدة يكنى  
أباً محمدٍ وكان مغلقاً فنظم قصيدةً وأنشدها الرشيدَ مضمناً  
لهذا المعنى ، قال فيها

تَقْضَ الَّذِي أُعْطِيَتْهُ يَعْفُورُ  
فَعَلَيْهِ دَائِرَةُ الْبَوَارِ تَدُورُ  
أَبْشَرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ  
فَتَحَ أَتَاكَ بِهِ الْإِلَهُ كَكَبِيرُ  
يَعْفُورِ إِيَّاكَ حِينَ تَغْدِرُ إِنْ نَأَى  
عَنْكَ الْإِمَامِ جَاهِلٌ مَغْرُورُ  
أَظَنَنْتَ حِينَ غَدَرْتَ أَنَّكَ مَفْلُتُ  
هَبْلَتِكَ أُمَّكَ مَا ظَنَنْتَ غُرُورُ

فلما أنهى الأبيات إلى الرشيد قال أوقد فعل ، ثم غزاه  
فأخذه وفتح مدينته ، ومن غريب الافتتاح وعجيبه ما قاله  
المتنبى في سيف الدولة وقد كان ابن الشمصق أقسم ليقتلنه

كفاحًا ، فلما التقى به لم يُطق ذلك وولى هاربًا ، فقال فيه  
عقبى اليمين على عقبى الوغى ندمُ

ماذا يزيدك في إقدامك القسمُ

وفي اليمين على ما أنت واعدُهُ

ما دلَّ أنك في الميعاد منهمُ

ومن ذلك ما قاله أبو تمام يمدح المعتصم فيها

الحقُّ أبلجُ والسيوفُ عوارِ

فخذارٍ من أسدِ العرينِ حذارِ

وهذه القصيدة من لطائف قصائده وعجائبها ، ومطلعها

يناسب ما ذكره فيها من ثنائه عليه وظفره بآبك الحرّمي .

ومن ذلك ما قاله السلمي في مطلع قصيدة له قال فيها

قصرٌ عليه تحيةٌ وسلامُ

خلعت عليه جمالها الأيامُ

وسئل بعضهم عن أحذق الشعراء ، فقال من أجاد

الابتداء والمطلع ، وهذا يدلُّ على أن لهما موقعا عظيما في

الفصاحة والبلاغة ، فهذا ما أردنا ذكره في الافتتاحات الحسنة

(الطرف الثاني)

( في ذكر الافتتاحات المستقبحة )

اعلم أنه ليس في كتاب الله تعالى ولا في السنة النبوية  
ولا في كلام أمير المؤمنين شيء من الافتتاحات المستكرهة  
فنورده ، وما ذاك إلا من اختصاصها بأرفع محل في البلاغة  
وبلوغها في أعلا مراتبها ، وإنما ورد ذلك في كلام البلغاء ونحن  
نورد ما استكره منه وكان مستقبحا . نعم القرآن وإن كان  
مستحسنا في كل حالة لكنه قد يُكره ذكر الآيات المشعرة  
بالموت عند عروض الأفراح ، وهذا كمن يستفتح بقوله تعالى  
( كلُّ نفسٍ ذائقة الموت ) عند نكاح أو غير ذلك من الافراح  
وكن يستفتح في قدوم تجارة له ( يوم يُحْمَى عليها في نار جهنم  
فُكْوَى بها ) الآية الى غير ذلك من الآيات الدالة على  
العذاب ووقوع الوعيد الشديد ، فما جرى هذا المجرى فإنه  
مستكره تلاته في هذه الاحوال ، لما فيه من قبح التفاؤل  
فلا يصلح ذكره ، وإنما يذكر في الافراح الآيات الدالة  
على السرور كقوله تعالى ( يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ )  
الى غير ذلك من الآيات الدالة على نعيم أهل الجنة وسرورهم ،

وهكذا القول في كتب التهاني والتعازي ، فإنه يجب ان يكون افتتاحها ملائماً لمقصودها ومطلوبها من الآيات والأخبار ، ولترجع الى أمثلة المطالع والافتتاحات السيئة ، ويحكى أن المعتصم لما فرغ من بناء قصره بالميدان وأعجب به جمع أهله واصحابه فيه وأمرهم أن يخرجوا في زينتهم فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم واستأذنه ابراهيم ابن إسحق الموصلي في الإيثار فأذن له ، فأنشده قصيدة أجاد فيها كل الإجارة خلا أنه افتتحها بافتتاح قبيح لا يلائم ما هو فيه فابتدأها بتعزية الديار وبلادها فقال

يا دارُ غيركِ البلاءِ ومحالكِ      يا ليتَ شعري ما الذي أبلأكِ

فتغامز الناس به وتطير به المعتصم وعجبوا من غفلة ابراهيم عن مثل ذلك مع معرفته وعلمه وطول مخالطته للملوك ، فأقاموا أياماً وانصرفوا فما عاد منهم اثنان الى ذلك المجلس ، وخرّب القصر بعد ذلك ، وما كان أخلق هذا المقام بيت السلمي الذي حكيناه عنه من قبل الذي مطلعاه ( قصر عليه تحية وسلام ) فانظر ما بين هذين الافتتاحين ، كم بين المطلعين ، ومن ذلك ما قاله أبو نواس

يادار ما فعلت بك الأيامُ

لم تبق فيك بشاشة تُستامُ

وهذه القصيدة هي من محاسن شعره وغرائبه ، خلا أنه أساء فيها الافتتاح والمطلع ، أنشأها ممتدحاً بها الامين ابن هرون ، وتعفية الديار ودثورها مما تكرهه مقابلة الخلفاء والملوك به ، لما فيه من الطيرة وقبح الفأل ، ومن الافتتاحات المكروهة ما قاله البحرى في قصيدة أنشأها مدحاً ، فأذهب رُوحها بهذا الافتتاح السيء ، ومطلع هذا الافتتاح بأن يكون مرثيةً أحق من أن يكون مديحاً قال

( فؤادٌ ملاه الحزنُ حتى تصدَّعا )

فمثلُ هذا يُطَيَّرُ به وتنبؤُ عنه الأسماع ، ومن قبيح

الافتتاح وشنيعه ما قاله ذوالرمة

( ما بالُ عينِكَ منها الماءُ ينسكبُ )

فما هذا حاله لا خفاء بقبحه إذ كان موجهاً للمدح ،

ولما أنشد الأخطلُ عبدَ الملك بن مروان قصيدته التي

مطلعها ( خَفَّ القَطِينُ فَرَا حُوا مِنْكَ أَوْ بَكَرُوا ) فقال له

عبدُ الملك . بل . منك فغيره ذوالرمة فقال فيه ( خَفَّ القَطِينُ

فَرَا حُوا اليَوْمَ أَوْ بَكَرُوا ) ومن قبيحه ما قاله البحرى

إِنَّ لِلْبَيْنِ مِنَّةً لَا تُؤَدَّى \* ويدا في تَمَاضِرِ بِيضَاءِ  
فما هذا حاله أعنى ذكر النساء بأسمائهن مما يثقل على  
اللسان ، فأيراده في الغزل مما يُشَوِّه رِقَّتَهُ ، ويحطُّ من خِفَّتِهِ ،  
وانما يُستحسن من الغزل بأسماء النساء من كان خفيفاً على  
اللسان ، كأَمِيمٍ ، وسُعَادٍ ، وقد عيبَ على الأخطل أيضاً  
تغزله بقُدُورٍ ، لما فيها من الثقل في المنطق ، فما هذا حاله  
ينبغي تجنبه في الأشعار ، فقد عرفت بما ذكرناه ما يجب  
مراعاته في الافتتاحات والمطلع وما يجب تجنبه في ذلك منها

### \* الفصل الثالث \*

( في ذكر الاستدراجات )

الاستدراجُ ، استفعالٌ من قولهم : استدرجته الى كذا  
اذا نزلته درجةً درجةً حتى تستدعيه اليك وينقاد لما قلته من  
ذلك ، قال الله تعالى ( سنستدرجهم من حيث لا يعلمون )  
فالاستدراجُ لهم انما هو باعطاء الصحة والنعمة والايهال  
ليزدادوا في الكفر والفسوق ، وهذا اللقبُ انما يطلق على  
بعض أساليب الكلام ، وهو ما يكون موضوعاً لتقريب  
المخاطب والتلطف به والاحتيال عليه بالاذعان الى المقصود

منه ومساعدته له بالقول الرقيق والعبارة الرشيقة ، كما يحتال على خصمه عند الجدل والمناظرة بأنواع الإلزامات ، والالتواء اليه بفنون الإيحاءات ، ليكون مُسرِعاً الى قبول المسئلة والعمل عليها ، وكن يتلطف في اقتناص الصيد فإنه يعمل في الحيلة كل حيلة ليكون ذلك سبيلاً الى ما يقصده من الاصطياد ، فهكذا ما نحن فيه ، اذا أراد تحصيل مقصد من المقاصد فإنه يحتال بايراد اللفظ القول وأحسنه ، فما هذا حاله من الكلام يقال له الاستدراج ، ولنضرب له أمثلة بمعونة الله تعالى

### ( المثال الأول )

من كتاب الله تعالى ( وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم فإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يُصِبْكم بعض الذي يعدكم فإن الله لا يهدي من هو مسرفٌ كذابٌ ) فانظر الى حسن مأخذ هذا الكلام ، وما تضمنته من النزول في الملاطفة ، فصدر الكلام بالإنكار عليهم في قتله واستفباحه ، لأمرين : أمّا أولاً فلأنه قائلٌ

بالتوحيد لله تعالى ، وأما ثانياً فلأنه قد جاءكم بالمعجزات الواضحة في هدايتكم الى الخير ، فمن هذه حاله كيف يُدَمَّ على قتله ، هذا مما لا يتسع له العقل ولا يقبله ، ثم أخذ بعد ذلك في الاحتجاج عليهم على جهة التقسيم فقال : ليس يخلو حاله إمّا أن يكون كاذباً فضرُّ كذبه يعود عليه ، وأنتم خالصون عنه ، وإن يك صادقاً يصبم بعض الذي يعدكم إن تعرضتم لقتله ، وفي سياق هذا الكلام من الملاطفة وحسن الادب وكمال الإنصاف ما يربو على كلّ غاية ، وبيانه من أوجه : أمّا أولاً فلأنه صدر الكلام بكونه كاذباً على جهة التقدير ملاطفة واستنزالاً للخصم عن نخوة المكابرة ودعاء له الى الإذعان والانتقاد للحق ، وقدّمه على كونه صادقاً دلالة على كونه صادقاً دلالة على ذلك ، وأمّا ثانياً فلأنه فرض صدقه على جهة التقدير مع كونه مقطوعاً بصدقه ، تقريباً للخصم وتسليماً لما يدّعيه من ذلك ، وهضماً لجانب الرسول زيادة في الانصاف ومبالغة فيه ، وأمّا ثالثاً فإنه أردفه بقوله يصبم بعض الذي يعدكم ، وإن كان التحقيق أنه يُصيبهم كلّ ما يعدُّهم به لا محالة ، من أجل الملاطفة ايضاً ، وأمّا رابعاً فإنه أتى (بإِنْ) للشرط ، وهي موضوعة للأمر المشكوك فيها ، ليدلّ

بذلك على أنه غير مقطوع بما يقوله على جهة الفرض ، وإذعاناً  
للخصم على التقدير لإرادة هضمه لحقه وأنه غير معطٍ له  
ما يستحق من التعظيم ، وأما خامساً فقوله تعالى في آخر الآية .  
انّ الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ، إنما أتى به على  
التلطف والإيناف مخافة أن يبعدوا عن الهداية ومحاذرة  
عن تفارهم عن طريق الصواب فرضاً وتقديراً ، وإلا فلو كان  
مسرفاً كذاباً ، لما هداه الله الى النبوة ، ولما اعطاه اياها ، وفي  
هذا الكلام من الاستدراج للخصم وتقريبه وإدناؤه الى  
الحق ما لا يخفى على أحد من الأكيّاس ، وقد تضمن من  
اللطائف ما لا سبيل الى جحده ، ومن هذا قوله تعالى في  
قصة خليله إبراهيم صلوات الله عليه في خطابه لأبيه ( وأذكر  
في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً إذ قال لأبيه  
يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً  
يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك  
صراطاً سوياً يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان  
لرخص عَصِيّاً يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من  
الرحمن فتكون للشيطان ولياً ) فهذا كلامٌ يهزُّ الأعطاف

ويأخذ بمجامع القلوب في الاستدراج والإذغان والانتقياد  
بألطف العبارات وأرشدتها ، وهو مشتمل على حسن الملاطفة  
من أوجهه : أمّا أولاً فلان إبراهيم صلوات الله عليه لما أراد  
هداية أبيه الى الخير وإيقادَهُ مما هو متورط فيه من الكفر  
والضلال الذي خالف فيه العقل ، ساق معه الكلام على أحسن  
هيئة ، ورتبه على أعجب ترتيب ، من حسن الملاطفة  
والاستدراج والرفق في الخصمة والحجاج ، والأدب العالي  
وحسن الخلق الحميد ، وذلك انه بدأ بطلب الباعث له على  
عبادة الأوثان والأصنام ، ليتوصل بذلك الى قطعه وإفحامه ،  
ثم إنه تكايس معه بأن عرض اليه بأن من لا يسمع ولا  
يبصر لا يفنى شيئاً من الأشياء لا يكون حقيقاً بالعبادة ، وأن  
من كان حياً سميماً بصيراً مقتدرّاً على الإجابة والعقاب ، متمكناً  
من العطاء والإنعام والتفضل ، من الملائكة وسائر الانبياء  
من جملة الخلق فإنه لا يستحق العبادة ويُستخفُّ عقل من  
عبده ، فكيف من هذه حاله في عدم الحياة والسمع والبصر  
من جملة الجمادات والأحجار التي لا حراك لها ولا حياة بها ،  
وأما ثانياً فلأنه دعاه الى التماس الهداية من جهته على جهة  
النبيه والرفق به وسلوك جانب التواضع ، فلم يخاطب أباه

بالجهل عما هو يدعو اليه ، ولا وَصَفَ نفسه بالاطلاع على  
كُنْه الحقائق ، والاختصاص بالعلم الفائق ، ولكنه قال :  
مَعِيَ لَطَائِفُ مِنَ الْعِلْمِ وَبَعْضٌ مِنْهُ ، وَذَلِكَ هُوَ عِلْمُ الدَّلَالَةِ عَلَى  
سُلُوكِ طَرِيقِ الْهُدَايَةِ ، فَاتَّبَعْتَنِي أَنْجَبَكَ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ ، وَقَالَ لَهُ ،  
أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ، وَلَمْ يَقُلْ أَنْجَبَكَ مِنْ وَرْطَةِ الْكُفْرِ  
وَأَنْتَ ذِكْرٌ مِنَ عَمَاءِ الْحَيْرَةِ ، تَأْدُبًا مِنْهُ ، وَاعْتَصَاءً عَنْ مَبَادِئِهِ  
بِقَبِيحِ كُفْرِهِ ، وَتَسَاهُجًا عَنْ ذِكْرِ مَا يَغِيظُهُ ، وَأَمَّا ثَالِثًا فَلِأَنَّهُ  
ثَبَّتَهُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ وَنَهَاهُ عَنْهُ ، فَقَالَ إِنَّ الشَّيْطَانَ الَّذِي عَصَى  
رَبَّكَ وَكَانَ عَدُوًّا لَكَ وَلَا يُبِيحُ آدَمَ ، هُوَ الَّذِي أَوْقَعَكَ فِي هَذِهِ  
الْحَبَائِلِ ، وَوَرَّطَكَ فِي هَذِهِ الْوُرْطِ وَأَلْقَاكَ فِي بَحْرِ الضَّلَالَةِ ،  
وَإِنَّمَا خَصَّ إِبْرَاهِيمُ ذِكْرَ مَعْصِيَةِ الشَّيْطَانِ لِلَّهِ تَعَالَى فِي  
مُخَالَفَتِهِ لِأَمْرِهِ وَاسْتِكْبَارِهِ ، وَلَمْ يَذْكُرْ عِدَاوَتَهُ لِآدَمَ وَحَوَاءَ ،  
وَمَا ذَاكَ إِلَّا مِنْ أَجْلِ إِيمَانِهِ فِي نَصِيحَتِهِ فَذَكَرَ لَهُ مَا هُوَ  
الْأَصْلُ تَحْذِيرًا لَهُ عَنْ ذَلِكَ وَعَنْ مَوَاقِعَتِهِ ، وَأَمَّا رَابِعًا فَلِأَنَّهُ  
خَوَّفَهُ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ بِالْعَذَابِ السَّرمَدِيِّ ، ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَصْرَحْ  
لَهُ بِعِمَاسَةِ الْعَذَابِ لَهُ إِكْبَارًا لَهُ ، وَإِعْظَامًا لِحُرْمَةِ الْأَبْوَةِ ،  
وَلَكِنَّهُ أَتَى بِمَا يَشْعُرُ بِالشَّكِّ فِي ذَلِكَ تَأْدِبًا لَهُ فَقَالَ لَهُ ( إِنِّي

أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ ) ثُمَّ إِنَّهُ نَكَرَ الْعَذَابَ  
تَحَاشِيًا عَنْ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ عَذَابٌ مَعَهُودٌ يَخَافُ مِنْهُ ،  
كَأَنَّهُ قَالَ وَمَا يُؤْمِنُكَ إِلَّا بِقِيَّتِ عَلَى الْكُفْرَانِ تَسْتَحِقُّ عَذَابًا  
عَظِيمًا عَلَيْهِ ، وَأَمَّا خَامِسًا فَلِأَنَّهُ صَدَّرَ كُلَّ نَصِيحَةٍ مِنْ هَذِهِ  
النَّصَائِحِ بِذِكْرِ الْأُبُوءِ ، تَوَسَّلًا إِلَيْهِ بِحُنُوِّ الْأُبُوءِ وَاسْتِعْطَافًا لَهُ  
بِرَفْقِ الرَّحْمِيَّةِ ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَسْرَعَ إِلَى الْإِتْقِيَادِ ، وَأَدْعَى  
إِلَى مَفَارَقَةِ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْجُحُودِ وَالْعِنَادِ ، فَلَمَّا سَمِعَ كَلَامَهُ  
هَذَا وَتَفَطَّنَ لِمَا دَعَاهُ إِلَيْهِ ، أَقْبَلَ عَلَيْهِ بِفِظَاطَةِ الْكُفْرِ ، وَجَلَافَةِ  
الْجَهْلِ ، وَغِلَظِ الْعِنَادِ ، فَنَادَاهُ بِاسْمِهِ وَلَمْ يَقُلْ يَا بُنَيَّ كَمَا قَالَ  
إِبْرَاهِيمُ ، يَا أَبَتِ ، إِعْرَاضًا عَنْ مَقَالَتِهِ وَإِصْرَارًا عَلَى مَا هُوَ  
فِيهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ قَدَّمَ خَبَرَ الْمَبْتَدَأِ بِقَوْلِهِ ( أُرَاغِبُ أَنْتَ ) اِهْتِمَامًا  
بِالْإِنْكَارِ وَتَمَادِيًا فِي الْمُبَالِغَةِ فِي التَّعْجِبِ عَنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ  
إِبْرَاهِيمِ مِثْلَ هَذَا ، فَانظُرْ مَا بَيْنَ الْخَطَايَيْنِ مِنَ التَّفَاوُتِ فِي  
الرِّقَةِ وَالرَّحْمَةِ وَحَسَنِ الْاسْتِدْرَاجِ ، ( فَلِلَّهِ دَرَّةُ الْإِنْبِيَاءِ ) فَمَا  
أَسْجَحَ خَلَاتِقُهُمْ ، وَأَرْقَ شَمَائِلَهُمْ ، وَفِي الْقُرْآنِ سَعَةٌ مِنْ هَذَا ،  
وَمَمْلُوءٌ مِنْ حَسَنِ الْحِجَابِ وَالْمَلَاظِفَةِ ، خَاصَّةً لِمَنْكُرِي الْمَعَادِ  
الْأُخْرَى ، وَعِبَادِي الْإِوثَانِ وَالْإِصْنَامِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَعَى  
عَلَيْهِمْ فِعَالَهُمْ ، وَسَجَّلَ عَلَيْهِمْ ، فَانظُرْ إِلَى حِجَابِهِ لِمَنْكُرِي

البعث بقوله ( وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ) كيف أكرمهم  
بالإلزامات ، وإلى حجاجه لعباد الأصنام بقوله ( انّ الذين  
تَدْعُونَ من دون الله لن يَخْلُقُوا ذُبَابًا ولو اجتمعوا له ) الى  
آخر الآية ولولا أنه يُخرجنا عن المقصد الذي تصدّينا له  
لذكرنا فيه أمثلة رائعة ونبهنا فيه على أسرار بديعة

### ( المثال الثاني )

من السنّة الشريفة ، ولا شك أنّ له صلى الله عليه مع  
الكفار من عبدة الأوثان والأصنام وغيرهم من أهل الكتب  
كاليهود والنصارى ملاطفةً في حسن الاستدراج ولين  
العريكة ، والتهالك في دعائهم الى الدين ، والإيمان في  
الانقياد له ، شيء كثير لا يُحصر عدده ، ولا يتجاوز أمدّه ،  
فمن ذلك ما حكاه ابن هشام في سيرته عن ابن إسحق : أنّ  
النبي صلى الله عليه كتب الى أخبار اليهود فقال : بسم الله  
الرحمن الرحيم من محمد رسول الله صاحب موسى وأخيه ،  
والمصدق لما جاء به موسى ، ألا إن الله قد قال لكم يا معشر  
أهل التوراة ، وإنكم لتجدون ذلك في كتابكم ، محمد رسول  
الله والذين معه أشدّاء على الكفار ورحماء بينهم تراهم

رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي  
وَجْهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي  
الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى  
عَلَى سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ  
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ، وَإِنِّي  
أُنشِدُكُمْ بِاللَّهِ ، وَأُنشِدُكُمْ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ ، وَأُنشِدُكُمْ بِالَّذِي أُطْعِمَ  
مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ أَسْبَاطِكُمْ ، الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ، وَأُنشِدُكُمْ بِالَّذِي  
أَيَّسَ الْبَحْرَ لَأَبَائِكُمْ حَتَّى أَتَجَاهَمُ مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ، إِلَّا  
أَخْبَرْتُمُونَا : هَلْ تَجِدُونَ فِيهَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ أَنْ تُوْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ،  
وَإِنْ كُنْتُمْ لَا تَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ فَلَا كُرَّةَ عَلَيْكُمْ قَدْ  
تَبَيَّنَ الرَّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ، فَأَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى نَبِيِّهِ ، فَلْيَنْظُرِ  
الْناظِرُ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابُ مِنْ لَطِيفِ الْمَحَاوِرَةِ  
وَحَسَنِ الْاسْتِدْرَاجِ الْمُزِيلِ لِلْأَحْقَادِ وَالضَّغَائِنِ ، وَالْمُؤَثِّرِ فِي  
إِزَالَةِ السَّخَامِ عَنِ الْقُلُوبِ ، وَذَلِكَ مِنْ أَوْجِهِ ، أَمَّا أَوْلَا فَلَانَهُ  
صَدَّرَ كِتَابَهُ بِقَوْلِهِ صَاحِبِ مُوسَى وَأَخِيهِ (١) يَعْنِي هَارُونَ ،

(١) كَذَا فِسر . وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِأَخِيهِ • هُوَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ • وَبِذَلِكَ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ الْآتِي • صَاحِبًا لِنَبِيِّهِمْ وَأَخَاهُ لَهُ

وإنما فعل ذلك إزالةً للوحشة عنهم ، وتقريراً لخواطرهم ،  
وإيناساً لقلوبهم عن نفارها عنه بكونه صاحباً لنبينهم  
وأخاً له ومصداقاً لما جاء به موسى ، كلُّ ذلك إنما يفعله  
على جهة الملاطفة ليستدرجهم إلى تصديقه بالمحاوراة اللطيفة .  
والخطابات المؤنسة ، وأمّا ثانياً فلأنه قال : يا معشر أهل  
التوراة ، تشریفاً لهم ورفعاً لمكانهم ، حيث صاروا مختصين  
بكتاب الله تعالى من بين سائر الخلق ، وأمّا ثالثاً فهو أنه  
احتجّ عليهم بما لا يجدون سبيلاً إلى إنكاره من كونه  
مكتوباً عندهم في التوراة ، ولم يقل لهم انظروا في معجزتي ،  
ولكنه وكلّمهم إلى معرفته بما يعرفونه ، رفقا بهم ومناصحةً  
وتقريراً لما هم عليه من ذلك ، ثمّ إنه تلا وصفه في التوراة  
ليُذعنوا بالتصديق على سهولة وقرب ، وأمّا رابعاً فلأنه قد  
أورد ذكر وصفه ووصف أصحابه في الإنجيل ليُعرفهم بذلك ،  
إيناساً لهم وتقريباً ، وأمّا خامساً فلأنه ذكر المناشدة ، تذكيراً  
لهم بالآلاء العظيمة ، والنعم المترادفة . بإكرامهم ، فأولها المنّة  
عليهم بإنزال التوراة وما شرع لهم فيها من الشرائع ، وثانيها  
بإطعامهم المنّ والسلوى ، وثالثها فلق البحر وشقه حتى جازوا  
فيه وأنجاهم من عدوهم بذلك ، فانظر إلى ما اشتمل عليه هذا

الكتاب من الاستدراج الحسن ، واللطف المستحسن ،  
والبسط الذي يؤنس القلوب عن نقارها ، ويكسبها الإقرار  
بعد إنكارها ، ولو قال في كتابه بسم الله الرحمن الرحيم من  
محمد رسول الله الناسخ لشريعة موسى بن عمران ، والمأجج  
لآثارها ، والطامس لأعلامها ، الى معشر اليهود الذين خالفوا  
وبدلوا أحكام التوراة وكذبوا بما جاء من عند الله . وخانوا  
عهد الله ، واشتروا بآياته ثمناً قليلاً ، أنشدكم بالله الذي مسخكم  
قردةً ، وأنزل بكم نكاله ، وضرب عليكم الذلة والمسكنة ،  
وأهانكم بالتزام الجزية ، وأقعدكم مقاعد الهوان ، حيث  
جحدتم نبوتى ، وأنتم تعرفون بها حقيقة . لا لبس فيها ، كما  
تعرفون أبناءكم ، لكان تنفيراً ، ولم يكن استدراجاً ، ولصار  
لجأجاً ، أحق من أن يكون تقريباً وحججاً ، ثم أقول لقد  
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكان من الملاطفة وحسن  
الحجاج قبل الهجرة بالمشركين من أهل مكة وغيرهم من سائر  
القبائل ثم ما كان منه من الملاطفة بعد الهجرة باليهود بنى  
قريظة وبنى النضير حتى هلك من هلك عن بينةٍ وحى من حى  
عن بينة

(المثال الثالث)

من كلام أمير المؤمنين كرم الله وجهه، ولقد كان له عليه السلام من الاستدراجات الرائقة خاصة مع معاوية، وفرق الخوارج وغيرهم ممن نكص عن الإسلام على عقبه، ولغيرهم من أصحابه من العنايةات الحسنة ما يشفي غليل الصدور، ويوضح ملتبسات الأمور، فمن ذلك ما ذكره خطاباً لمعاوية فاتق الله يا معاوية في نفسك، وجاذب الشيطان قيادك، فإن الدنيا منقطعة عنك، والآخرة قريبة منك، فكيف أنت إذا انكشف عنك جلايب ما أنت فيه من دنيا قد بهجت بزيتها، وخذعت بلدتها، دعتك فأجبتها، وقادتك فاتبعتها، وأمرتك فأطعتها، وإنه يوشك أن يقفك واقف على مالا ينجيك منه منج، فاقمس عن هذا الأمر، وخذ أهبة الحساب، وشمّر لما نزل بك، ولا تمكّن الغواة من سمعك، فهذا وما شاكله استدراجٌ وحسنٌ ملاطفة، وله عليه السلام في غير هذا الموضوع كلامٌ فيه خشونة عظيمة، ومن ذلك ما قاله لعبد الله بن عباس عند استخلافه إياه على البصرة: سَعِ النَّاسَ بِوَجْهِكَ وَجَلِّسْكَ وَحَلِّمِكَ، وَإِيَّاكَ وَالغَضَبَ فَإِنَّهُ طَيْرَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ،

واعلم أن ما قربك من الله بعدك من الشيطان والنار ، وما  
باعدك من الله يقربك من النار والسلام ، ومن ذلك يخاطب  
به معاوية ، مناصحة له وتقريباً له من الحق : أما بعدُ فإن الله  
جعل الدنيا لما بعدها ، وابتلى فيها أهلها ليعلم أيهم أحسن  
عملاً ، ولسنا للدنيا خلقنا ، ولا للسعي فيها أمرنا ، وإنما وضعنا  
فيها لنبتلى بها ، وقد ابتلاني الله بك وابتلاك بي ، فجعل  
أحدنا حجة على الآخر ، فعدوت على طلب الدنيا بتأويل  
القرآن ، فطابتى بما لم تبجن يدي ولا لساني ، وعصيته أنت  
وأهل الشام ، وألب عالمكم جاهلكم ، وقائمكم قاعدكم ،  
فاتق الله في نفسك ، ونازع الشيطان قيادك ، واصرف الى  
الآخرة وجهك ، فهي طريقنا وطريقك ، واحذر أن يصيبك  
الله بعاجل قارعة تمس الأصل ، وتقطع الدابر ، فإنني أولى  
لك بالله أليّة غير فاجرة ، لأن جمعتي وإيّاك جوامع الأقدار  
لا أزال بساحتك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ،  
وقال أيضاً مخاطباً له أما بعدُ ، فقد علمت إعداري فيكم ،  
وإعراضي عنكم ، حتى كان ما لا بد منه ، ولا مدفع له ،  
والحديث طويل ، والكلام كثير . وقد أدبر من أدبر ،

وأقبل من أقبل ، فتابع من قبلك ، وأقبل الى في وفد من اصحابك والسلام ، وقال يخاطبه بالاستدراج : أما بعد فإني على التردد في جوابك ، والاستماع الى كتابك ، لموهن رأيي ومخطي فراستي ، وإنك إذ تحاولني الامور ، وتراجعني السطور ، كالمشتغل النائم ، تكذبه أحلامه ، والمتحير القائم ينهضه مقامه لا يذرى آله ما يأتي أم عليه ، ولست به ، غير أنه كل شبيهه ، وأقسم بالله لولا بغض الاستبقاء لوصلت مني اليك قوارع تفرع العظم ، وتنهس اللحم ، واعلم أن الشيطان قد ثبتك عن أن تراجع أحسن أمورك ، وتأذن لمقال نصيحك والسلام ، وقال يخاطب طلحة والزبير بالملاطفة العجيبة : أما بعد فقد علمت ما وان كتمت ما أني لم أورد الناس حتى أرادوني ، ولم أباعهم حتى بايعوني ، وأنكما ممن أرادني وباعني ، وأن العامة لم تباعني لسلطان غالب ، غاصب ، ولا لغرض حاضر ، فإن كتمت بايعتاني طائعين ، فارجعوا وتوبوا الى الله من قريب ، وان كتمت بايعتاني كارهين فقد جعلتني لي عليكم السبيل ، بإظهاركم الطاعة ، وإسراركم المعصية ، ولعمري ما كتمت بأحق من المهاجرين بالتقية والكتمان ،

وإن دفعكما هذا الأمر من قبل أن تدخل فيه كان أوسع  
عليكما من خروجكما منه بغير إقراركما به ، وقد زعمتُما أني  
قتلتُ عثمان ، فبينى وبينكما من تخلف عني وعنكما من أهل  
المدينة ، ثم يلزم كلُّ امرئٍ بقدر ما احتمل ، فأرجعاً أيها  
الشيخان عن رأيكما فإن الآن أعظم أمركما العار من قبل أن  
يجتمع العار والنار والسلام ، وقال أيضاً يخاطب محمد بن أبي  
بكر لما بلغه توجُّده عليه حين عزله بالأشتر : وقد بلغني  
موجدتُك من تسريح الأشر إلى عمك واني لم أفعل ذلك  
استبطاءً لك في الجهد ، ولا ازدياداً في الحد ، ولو نزعْتُ ما  
تحت يدك من سلطانك لوليتك ما هو أيسرُ عليك مؤنةً  
وأعجب اليك ولايةً ، إن الرجل الذي كنت وليته أمر  
مصر كان رجلاً لنا ناصحاً ، وعلى عدونا شديداً ناصحاً ،  
فرحمه الله ، فلقد استكمل أيامه ، ولاقي حمامه ، ونحن عنه  
راضون ، أولاه الله رضوانه ، وضاعف الثواب له ،  
فاضحراً لعدوك ، وامض على بصيرتك ، وشمرَّ لحرب من  
حاربك ، وادعُ إلى سبيل ربك ، وأكثر الاستعانة بالله ،  
يكفك ما أهمك ويعنك على ما ينزل بك والسلام ، فهذا  
ما أردنا ذكره من كلام أمير المؤمنين في الاستدراجات

اللطيفة ، وكم له في هذا النوع من الكلمات لأنه كان قد بلي بحرب أهل القبلة وخروجهم عليه ، فكان حريصا على إبانة الحجّة ، وإيضاح المحجّة ، بالأقوال اللطيفة ، والخطابات الرقيقة ، إبلاغاً للحجّة ، وقطعاً للمعذرة ، والله درُّ أمير المؤمنين ، فلقد كانت قوَالاً للحقّ ، فعلاً له ، موضح السنن والمعالم ، والناصح لله وللدين لا تأخذه فيه لومة لائم

( المثال الرابع )

ما ورد عن البلغاء في الاستدراج ، يحكى أنه وقعت بين الحسين بن علي صلوات الله عليه ، وبين معاوية بن أبي سفيان مفاوضة في أمر ولده يزيد ، وذلك أن معاوية قال للحسين بن علي : أمّا أمك فإنها خيرٌ من أمّه ، وفاطمة بنت رسول الله خيرٌ من امرأة من كلب ، وأمّا حبيبي يزيد فاني لو أعطيتُ به مثلك ملء النُوطة ما رَضيت ، وأمّا أبوك وأبوه ، فإنهما تما كما الى الله فحكّم لأبيه على أيبك ، فلينظر الناظر ما اشتمل عليه كلام معاوية من المراوغة عن الحق وتلبيس الأمر في ذلك على السامع بلطيف الاستدراج وحسن الإجمال مع ما فيه من البلاغة والفصاحة ، فانظر الى عظيم

دهائه ، وإغراقه في الخدق والكياسة ، حيث علم وتفتن ما كان لأمر المؤمنين من سبق في الإسلام ، وحسن الإيبلاء في الجهاد لأعداء الله ، وما خصه الله به من العلم الباهر والقدم الراسخ في الزهد والعبادة فلم يتعرض للمفاخرة في ذلك ، ولا دعاً الى المنافرة ، ولو قال إن الله قد أعطاني الدنيا ، ونزعتها منكم ، لأن مثل هذا لا فضل فيه ، لأن الدنيا لها البرُّ والفاجر ، ولكن صفح عن ذلك كله ، وأعرض عنه ، وأتى بكلام مبهم لا يفهم منه المقصود ، وهو قوله : إن أباك وأباه تحاكما الى الله فحكّم لأبيه على أبيك ، فانما أتى بهذا الكلام ليسكت خصمه ، ويستدرجه الى الإصمات ، وهذا من غدره ودهائه قليل ، ومن لطيف ما جاء في الاستدراج من المنظوم ما قاله أبو الطيب المتنبى : وذلك أن سيف الدولة كان مُخيمًا بأرض الديار البكريّة على مدينة ميّا فارقين ، ليأخذها فعصفت الريحُ خيمته فأسقطتها فتطير الناس لذلك ، وقالوا إنه لا يأخذها فامتدحه أبو الطيب بقصيدةٍ لامية يعتذر فيها عن سقوط الخيمة ، ويستدرج ما أثار ذلك في صدره بالإزالة والمحو ، تقريباً لحاطره ،

وتطيباً لنفسه، فأجاد فيها كلَّ الإِجادة، وأحسن في الاعتذار  
والاستدراج غاية الإِحسان، مطلعها: (أينفعُ في الخيمةِ  
العُدلُ) ومنها قوله

تضيقُ بشخصك أرجاؤها

ويركضُ في الواحدِ الجحفلُ

وتقصرُ ما كنتَ في جوفها

وتركزُ فيها القنا الذُّبلُ

ثم قال

وإنَّ لها شرفاً باذخاً  
فلا تُنكرنَّ لها صرعةً  
ولما أمرت بتطيبها  
فما اعتمدَ اللهُ تقويضها  
وعرَّفَ أنَّك من همِّه  
فما العاندون وما أملوا  
همُّ يطلبون فمن أدركوا  
وهمُّ يتمنون ما يشتهو

وإنَّ الخيامَ بها تنجبلُ  
فمن فرحَ النفس ما يقتلُ  
أشيعَ بأنك لا ترحلُ  
ولكن أشارَ بما تفعلُ  
وأنَّك في نصرهِ ترفلُ  
وما الحاسدون وما قولوا  
وهم يكذبون فمن يقبلُ  
ن ومن دونه جدك المقبلُ

فهذه الأبيات من أعظم الأمثلة في الاستدراج وإزالة

ما يقع في النفوس ، ولو لم يكن في شعره الآ هذه القصيدة ،  
لكانت كافيةً في معرفة فضله ، وكونه فائقاً فيه ، ولنقتصر على  
هذا القدر من أمثلة الاستدراج ففيه كفاية

### ﴿ الفصل الرابع ﴾

( في الامتحان )

اعلم أنّ من المعاني ما يكون متوسطاً فيما أُتِيَ به من  
أجله ، فيكون اقتصاداً ، ومنها ما يكون قاصراً عن الغرض  
فيقال له تفريطٌ ، ومنها ما يكون زائداً عن الحدِّ فيكون  
إفراطاً ، فهذا الفصل يسمى الامتحان لما كان فيه الإفادةُ  
لمعرفة هذه الأمور الثلاثة ، فاذا عرفت هذا فاعلم أنّ هذه  
الأمور الثلاثة ، أعني الاقتصاد ، والتفريط ، والإفراط ، لها  
مدخلٌ في كل شيء من العلوم والصناعات ، والأخلاق  
والطبائع ، ولا بُدَّ من بيان معانيها في الأوضاع اللغوية ، ثم  
نظهر نقلها الى المعاني

فأمّا الاقتصادُ فاشتقاقه من القصد وهو العدلُ الذي  
لا يميل الى أحد الطرفين ، قال الله تعالى ( فمنهم مقتصدٌ )

فوسطه بين قوله ( فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنهم سابقٌ بالخيرات )  
فظلم النفس ، والسبق بالخيرات هما طرفان ، والاقتصادُ  
أوسطهما ، وقال تعالى ( والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم  
يقترُوا وكان بين ذلك قواماً ) فالإسرافُ ، والإقتارُ طرفان ،  
والقوامُ ، هو الوسط والاقتصادُ ، لأن الوسط لا بدَّ له من  
طرفين ، ولهذا قال عليه السلام : خيرُ الأمور أوسطها ،  
ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لباس الشهرَّتين ، فلا  
بدَّ هناك من وسطٍ مأمورٍ به ، وهو لباس أهل الصلاح ، فلا  
يكون لباس أهل الفخر والخياء ولا لباس أهل الإِدْقاعِ  
والفقر والمسكنة ، ولهذا قال بعضهم

عليك بالقصد في كلِّ الأمور تفرُّ (١)

إِنَّ التَّخَلُّقَ يَأْتِي دُونَهُ الْخُلُقُ

والوسطُ مستحسنٌ عقلاً ، وشرعاً ، وعرفاً ، وأمَّا التفريطُ  
فهو التقصيرُ والتضييعُ ، ولهذا قال تعالى ( ما فرطنا في  
الكتاب من شيءٍ ) أي ما أهملنا من إيداعه المصالح الدينية ،  
ولا ضيعتها منه ، وأمَّا الإفراطُ ، فهو الإسرافُ في الشيءِ

(١) الرواية عليك بالقصد فيما أنت فاعله

والتجاوز للحدّ فيه يُقالُ أفرط في الشئ ، اذا تجاوز الحدّ ،  
فصار التفريطُ والإفراطُ هما الطرفان الضدان ، والاقتصادُ  
هو الوسطُ في الاعتدال ، فهذه هي المعاني التي تفيدها هذه  
الألفاظ من جهة اللغة ، فاذا عرفتها فنقول قد نُقلت هذه  
المعاني الثلاثة الى أمور مصطلح عليها في علوم البيان ، نوضحها  
ونجعلها على مراتب ثلاث

(المرتبة الأولى في الاقتصاد)

ومعناه أن يكون المعنى المندرج تحت العبارة على  
حسب ما يقتضيه المعبرُ عنه مساوياً له من غير زيادة ،  
فيكون إفراطاً ، ولا نقصانٍ ، فيكون تفريطاً ولنورد فيه  
أمثلة أربعة توضح المقصود منه بمعونة الله تعالى

(المثال الأول)

من كتاب الله تعالى : وهذا كقوله تعالى في صدر سورة  
البقرة في صفة المتقين ( هُدَى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ  
وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا  
أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ

على هُدًى من ربهم وأولئك هم المفلحون) فهذه الأوصاف على  
نهاية الاقتصاد والتوسط من غير إفراط ولا تفريط ، وقوله  
تعالى في افتتاح سورة المؤمنين في صفة أهل الإيمان ( قد  
أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن  
اللعغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون ) الى قوله ( أولئك هم  
الوارثون ) والقرآن وارد على هذه الطريقة ، فإنه وارد على  
نهاية الاعتدال والتوسط ، فهذا ماورد في المدح ، فأما الذم  
فكقوله تعالى في سورة نون يخاطب به الوليد بن المغيرة  
المخزومي ، وقيل الأخنس ابن شريق ، وقيل الأسود بن  
عبد ينفوت ( ولا تطع كل حلاف مهين همّاز مشاء بنميم  
مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم ) فهذه أوصاف  
دالة على الذم ، صادقة عما هم عليه من هذه السمات جارية  
على جهة الاعتدال والتوسط من غير إفراط ولا تفريط ،  
وهكذا القول في جميع علوم القرآن وأصوله من الأوامر ،  
والنواهي والوعد ، والوعيد ، والقصص ، والأمثال ، فإنها جارية  
على جهة التوسط والاعتدال لا تخرج عن حد فيما تناولته من  
مدح ولا ذم ولا غيره كما يكون الخروج في غيره

(المثال الثاني)

من السنة النبوية، فمن ذلك قوله صلى الله عليه: ألا أحدثكم  
بأحبكم اليّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة، أحاسنكم  
أخلاقاً الموطؤون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون، ألا  
أخبركم بأبغضكم اليّ وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة،  
الثرثارون المتفهبون فانظر الى حبه. فما أعدله، والى بغضه.  
ما أقومه، فأعطى المحب ما يليق به، وأعطى البغض  
ما يستحقه من غير إفراطٍ في الجانبين، ولا تفريطٍ في حقهما  
ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم البخيلُ بعيدٌ من الله، بعيدٌ  
من الناس، قريبٌ من النار، والسخيُّ قريبٌ من الله قريبٌ  
الناس، بعيدٌ من النار، وقال عليه السلام: إنَّ مع العزِّ ذلاً،  
وإنَّ مع الحياة موتاً، وإنَّ مع الدنيا آخرةً، وإنَّ لكلِّ  
شيءٍ حسيباً، وإنَّ على كلِّ شيءٍ رقيباً، وإنَّ لكلِّ أحدٍ كتاباً،  
ولكلِّ حسنةٍ ثواباً، ولكلِّ سيئةٍ عقاباً، وقوله صلى الله عليه  
وسلم: اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك وصحتك  
قبل سقمك وحياتك قبل موتك، وغناك قبل فقرك، وفرغك  
قبل شغلك، وقوله صلى الله عليه وسلم: إنَّه من خاف البيات

أَدْجَجَ ، وَمَنْ أَدْجَجَ فِي الْمَسِيرِ وَصَلَ ، وَإِنَّمَا تَعْرِفُونَ عَوَاقِبَ  
أَعْمَالِكُمْ لَوْ قَدْ طُوِّبَتْ صَحَائِفُ آجَالِكُمْ ، أَيُّهَا النَّاسُ . إِنَّ  
نِيَّةَ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ ، وَنِيَّةَ الْفَاسِقِ شَرٌّ مِنْ عَمَلِهِ ،  
فَلْيَتَأَمَّلِ الْمُتَأَمِّلُ فِي كَلَامِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْاِقْتِصَادِ فِي الْوَعظِ ،  
وَفِي وَصْفِ الْمَحَبَةِ وَالْبَغْضِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِهِ فَإِنَّهُ لَا مَرِيَّةَ  
فِي كَوْنِهِ سَالِكًا فِيهَا طَرِيقَةَ الْقَصْدِ ، وَنَاهِجًا مِنْهَجَ الْعَدْلِ  
لَا يَغْلُو فَيُفْرِطَ وَلَا يَحِيفُ فَيُفْرِطَ

(المثال الثالث)

من كلام أمير المؤمنين كرم الله وجهه ، وهو جار فيما هو  
فيه على قانون النصفية ، وسالك لطريق الحق والمعدلة ، من  
ذلك ما قاله في صفة المؤمنين وأهل التقوى : وَإِنَّ لِلذِّكْرِ  
لَأَهْلًا أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلًا ، فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْهُ ،  
يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ ، وَيَهْتَفُونَ بِالزَّوْجِرِ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فِي  
أَسْمَاعِ الْغَافِلِينَ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْقَسْطِ وَيَأْتَمُرُونَ بِهِ ، وَيَنْهَوْنَ  
عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ ، فَكُنَّا نَقْطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ ،  
وَهُمْ فِيهَا ، فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ، فَكُنَّا نَطَّلِعُوا عَلَى غُيُوبِ أَهْلِ  
الْبَرْزَخِ فِي طُولِ الْإِقَامَةِ فِيهِ ، وَحَقَّقَتُ الْقِيَامَةَ عَلَيْهِمْ عَذَابَهَا

فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا ، حتى كأنهم يرون ما لا  
يرى الناس ، ويسمعون ما لا يسمعون ، فلو مثلتهم لعقلك في  
مقاومتهم المحمودة ، ومجالسهم المشهودة ، وقد نشرُوا دواوين  
أعمالهم ، وفرغوا لمحاسنة أنفسهم ، على كل صغيرة وكبيرة أمرُوا  
بها فقصروا عنها ، أو نهوا عنها ففرطوا فيها ، وحملوا ثقل  
أوزارهم ظهورهم ، فضعفوا عن الاستقلال بها ، فنشجوا  
نشيجاً وتجاوبوا نحيباً ، يعجبون الى ربهم من مقاوم ندم  
واعتراف ، لرأيت أعلام هدى ومضايح دُجى ، قد حفت  
بهم الملائكة ، وتنزلت عليهم السكينة ، وفتحت لهم أبواب  
السماء ، وأعدت لهم مقاعد الكرامات ، فى مقعد اطلع الله  
عليهم فيه فرضي سعيهم ، وحمد مقامهم ، رهائن فاقه الى  
فضله ، وأسارى ذلة لعظمته ، جرح طول الأسى قلوبهم ،  
وطول البكاء عيونهم ، لكل باب رغبة الى الله يد قارعة ،  
يسألون من لا تضيق لديه المنادح ، ولا يخيب عليه الراغبون ،  
ومن كلام له عليه السلام يصف فيه أهل النفاق قال فيه :  
أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحذركم أهل النفاق ، فإنهم  
الضالون المضلون ، والزالون المزلون ، يتلونون ألوانا ، ويفتنون

افتنانا ، وَيَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمَادٍ ، وَيُرْصِدُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَادٍ ،  
قُلُوبُهُمْ دَوِيَّةٌ ، وَصِفَاتُهُمْ نَقِيَّةٌ ، يَمْشُونَ الْحَفَاءَ ، وَيَدْنُونَ الضَّرَاءَ ،  
وَصَفُّهُمْ دَوَائِدٌ ، وَقُلُوبُهُمْ شَفَاءٌ ، وَفِعْلُهُم الدَّاءُ العِيَاءُ ، حَسَدَةٌ  
الرِّخَاءُ ، وَمُؤَكَّدُوا البَلَاءُ ، وَمُقْنِطُوا الرَّجَاءُ ، لَهُمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ  
صَرِيحٌ ، وَالى كُلِّ قَلْبٍ شَفِيعٌ ، وَلِكُلِّ شَجْوٍ دَمِوعٌ ،  
يَتَقَارِضُونَ الثَّنَاءَ ، وَيَتَرَاقِبُونَ الجِزَاءَ ، إِنْ سَأَلُوا الحَفْوَا ،  
وَإِنْ عَذَّبُوا كَشَفُوا ، وَإِنْ حَكَمُوا أَسْرَفُوا ، قَدْ أَعَدُّوا  
لِكُلِّ حَقٍّ بَاطِلًا ، وَلِكُلِّ قَائِمٍ مَائِلًا ، وَلِكُلِّ حَيٍّ قَاتِلًا ،  
وَلِكُلِّ بَابٍ مَفْتَا حًا ، وَلِكُلِّ لَيْلٍ صَبَاحًا ، فَهَمُّ لِمَةِ الشَّيْطَانِ ،  
وَحُمَةُ النَّيْرَانِ ، أَوْلَيْكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ، أَلَا إِنْ حِزْبُ  
الشَّيْطَانِ هُمُ الخَاسِرُونَ ، فَانظُرْ الى كَلَامِهِ فِي الفَرِيقَيْنِ كَيْفَ  
أَبْرَزَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَقِيقَةَ حَالِهِ ، وَمَيَّزَ أَحَدَهُمَا عَنِ  
الْآخَرِ وَمَثَّلَهُ بِأَعْجَبِ مَثَالِهِ ، قَدْ طَابَقَ بِكَلَامِهِ المَرَادَ ، مِنْ غَيْرِ  
نَقْصَانٍ فِيهِ وَلَا اِزْدِيَادٍ ، وَأَقُولُ لَقَدْ ضَرَبَتْ عَلَيْهِ البَلَاغَةُ  
سُرَادِقَهَا ، وَأَحَاطَ مِنَ الفِصَاحَةِ بِمَكْنُونِهَا وَأَسْرَارِ حَقَائِقِهَا

(المثال الرابع)

ما كان من كلام البلغاء في ذلك وهذا كقول الفرزدق

يمدح زين العابدين على بن الحسين

هذا الذى تعرفُ البطحاءَ وطأتهُ  
والبيتُ يعرفُهُ والحِلُّ والحَرَمُ  
هذا ابنُ خيرِ عبادِ اللهِ كلِّهم  
هذا التقيُّ النقيُّ الطاهرُ العلمُ  
يكاد يُمسكُهُ عرفانُ راحتهِ  
ركنُ الحطيمِ اذا ما جاءَ يستلمُ  
ومن هذا قولُ البحرى

ولو أنْ مشتاقاً تكلفَ فوقَ ما  
فى وَسعِهِ لَسَعَى اليك المَنِبرُ  
فهذا مدحٌ مقتصدٌ ليس فيه إسرافٌ ولا تقثيرٌ ولا  
ركبَ صاحبه إفراطاً ولا تفريطاً ، ومن هذا قولُ بعضهم  
يهجو غيره

لقد صَبَرْتُ فى الذلِّ أعوادُ منبرِ  
تقومُ عليها فى يديك قضيبُ  
فهذا ذمٌّ لم يرتكبْ فيه شَطَطاً ، ولا رام فيه فرطاً ،  
بل وصفها بالذلِّ لكونها حاملةً له ، لان من هوانها كونه  
راكباً لها عالياً عليها ، فهذا تقريرُ الأمثلةِ فيما جرى من  
الكلام على جهةِ الاقتصادِ

(المرتبة الثانية)

(فما يجرى على جهة التفريط)

فيورد على جهة التقصير في المعبر عنه ، والتضييع  
والإهمال له ، فمن ذلك ما قاله الفرزدق

أَلَا لَيْتَنَا كُنَّا بَعِيرَيْنِ لَا نَرِدُ

عَلَى حَاضِرٍ إِلَّا نُشَلُّ وَتُقَذَفُ

كِلَانَا بِهِ عُرٌّ يُخَافُ قِرَافَهُ

عَلَى النَّاسِ مَطْلِي الْمَسَاعِرِ أَخْشَفُ

فما هذا حاله من جملة التفريط لكونه من جملة  
الأمنيات النازلة ، والمقاصد السخيفة ، التي لا ثمرة لها ولا  
جدوى عندها ، فإن حاصل ما قال في هذين البيتين أنه قصر  
أمنيته على أن يكون هو ومحبوبه ، كبعيرين أجربين لا  
يقربهما أحدٌ ، ولا يقربان أحداً ، إلا طردهما ، نفاراً منهما ،  
وعيفةً لمقاربتهما ، لما فيهما من العرِّ ، وهو داءٌ يصيب الإبلَ  
في مشافرها ، والأخشفُ بالخاء والشين المعجمتين . البعيرُ  
الذي يجترى على المسير بالليل ، والقرافُ . المداناة والقرب ،  
وغرضه من ذلك كله البعد عن الناس بمنزلة من به داء عظيم ،

يُتَأَقَّفُ مِنْهُ وَيُبْعَدُ عَنْهُ ، وَلَقَدْ كَانَ لَهُ مَنْدُوحَةٌ عَنْ مِثْلِ هَذِهِ  
الْأَمَانِي السَّخِيفَةِ الْبَعِيدَةِ ، فَأَيْنَ هَذَا مِنْ قَوْلِ مَنْ قَالَ فِي  
الْأَمَانِي الرَّقِيقَةِ ، وَالطَّرَائِفِ الرَّشِيقَةِ

( يَا رَبِّ إِنَّ قُدْرَتَهُ لِمُقْبَلٍ

غَيْرِي فَلِلْمَسْوَكَ أَوْ لِلْأَكْوَسِ )

( وَإِذَا حَكَمْتَ لَنَا بَيْنَ مُرَاقِبٍ

فِي الدَّهْرِ فَلْتَكُ مِنْ عَيُونِ التَّرْجِسِ )

فَانظُرْ مَا بَيْنَ الْأَمْنِيَّتَيْنِ مِنَ التَّفَاوُتِ الْعَظِيمِ وَمِنْ أَمْثَلَةِ

التَّفْرِيطِ مَا قَالَهُ أَبُو تَمَّامٍ يَمْدَحُ رَجُلًا

يَنْتَقِي الْحَرْبَ مِنْهُ حِينَ تَغْلِي مَرَاجِلُهَا بِشَيْطَانٍ رَجِيمٍ

فَمَا هَذَا حَالُهُ فِي الْمَدِيحِ ، مِنَ التَّفْرِيطِ وَالْإِهْمَالِ وَالتَّضْيِيعِ

الَّذِي لَا يُمْدَحُ بِمِثْلِهِ بِحَالٍ ، لِمَا فِيهِ مِنْ مَقَابِلَةِ الْمَمْدُوحِ بِأَقْبَحِ

الْأَسْمَاءِ ، وَأَسْوَأِ الصِّفَاتِ وَكَقَوْلِهِ أَيْضًا يَمْدَحُ رَجُلًا

مَا زَالَ يَهْدِي بِالْمَكَارِمِ وَالْمُلَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ مَحْمُومٌ

وَكَقَوْلِهِ أَيْضًا

أَنْتَ دَلْوٌ وَذُو السَّمَّاحِ أَبُو مَوْ

سَى قَلْبِي وَأَنْتَ دَلْوُ الْقَلْبِ

فما هذا حاله من المدائح التي نزلت في الرّكّة وكانت  
معدودة في التفريظ البالغ، ومن أمثلة التفريظ ما قاله البحري  
يمتدح الفتح بن خاقان في قصيدته المشهورة ويذكر فيها لقاءه  
للأسد وقتله له

شهدت لقد أنصفته حين تبترى  
له مُصَلَّتًا عَضْبًا من البيض مِقْضِبًا  
فلم أَرِ ضِرْغَامِينَ أُصْدَقَ مِنْكُمْ  
عَرَكًا إِذَا الْهَيَّابَةُ النَّكْسُ كَذِبًا  
فقوله: إذا الهَيَّابَةُ النَّكْسُ كَذِبًا. ليس فيه مدح،  
وقد فرط في إيراده مدحا لهذا الرجل، وكان الأخلق بالمدح  
ان يقول: إذا البطل كذب، لانه الأمدح في إقدام المُقْدِمِ  
في الموضع الذي يفرُّ منه الجبان، إذ لا فَضْلَ في مثل هذا،  
وانما الفضل فيما قاله ابو تمام

فَتَى كَلِمًا ارْتَادَ الشَّجَاعُ مِنَ الرَّدَى  
مَفْرًا غَدَاةَ الْمَأْزِقِ ارْتَادَ مَصْرَعًا  
ومن التفريظ ما قاله بعض الشعراء  
وتلحقه عند المكارم هَزَّةٌ  
كما انتفض المحموم من أم ملدم

فهذه الامثلة كلها من المدائح التي وقع التفريط فيها ولا يجوز استعمالها ، فالمعنى فيها وان كان حسناً جيداً ، لكنه لأجل العبارة كان مستقبحاً مسترذلاً ، تعافه الطباع ، وتمجّه الأسماع ، وليس من التفريط شيء في كتاب الله تعالى ، ولا في السنة النبوية ، ولا ورد فيه شيء من كلام امير المؤمنين ، حرّاسة من الله تعالى لها وكلاءة منه عنها فإين ما ذكره هذا الشاعر مما قاله ابن الرومي يمدح أقواما

ذهب الذين تهزّم مدّاحهم  
هزّ الكماة عوالي المرات  
كانوا اذا مدحوا رأوا ما فيهم  
فالأريحية منهم بمكان  
(المرتبة الثالثة)

ما يكون على جهة الإفراط وهو كما ذكر تجاوز الحد في المدح والذم وغيرهما من المقاصد ، وهل يجوز استعماله في الكلام أم لا ، فيه مذهبان ، المذهب الأول جواز استعماله ، وقالوا إن أحسن الشعر أكذبه ، بل أكذبه يكون أصدق ، ويصدق ذلك قوله تعالى ( وأنهم يقولون ما لا يفعلون ) فظاهر الآية

وإن كان وارداً على جهة الذم لهم بدليل ما قبلها، لكنه  
محمّل للإباحة، كأنه جعل ذلك من دأبهم ومن عاداتهم، وأنه  
لا شاعر يوجد إلا وهذه صفة كما قال تعالى ( والشعراء يتَّبِعُهُمُ  
الغَاوُونَ ) كأنه صار متابعه الغاوين لهم من جملة أوصافهم، وقد  
تهالك الشعراء في ذلك وأتوفيه بكلّ مُعْجَبٍ مما يُخْجَلِ  
الأذهان، ويصم الآذان لغرابته، ويحير الأفهام لشدة  
الاعجاب به

### ( المذهب الثاني )

منه آخرون، وزعموا أن الأمور لها حدود ونهايات مما  
يدخل تحت الإمكان، فأما ما كان من الأمور ما لا يدخل  
تحت الإمكان ولا يُعقل وجوده فلا وجه له، والمذموم من  
الإفراط ما لا مدخل له في الوجود على حال، والمختار عندنا  
جوازه على كلّ أحواله، لأنه إذا كان جائز الوجود فهو مُعْجَبٌ  
لا محالة، لاشتماله على المبالغة في المدائح وأنواع الذم، وإن لم  
يكن جائز الوجود، فالاعجاب به أشدّ، والملاحظة فيه أدخل،  
وقد ورد مثل ذلك في كتاب الله تعالى قال الله تعالى ( وقد  
مكروا مكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرَهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ

لَتَزُولُ مِنْهُ الْجِبَالُ) على قراءة من قرأ بفتح اللام في نزول ،  
لأنها هي الفارقة بين المؤكدة والنافية ، وعلى هذا يكون معنى  
الآية وإن مكروهم لتزول منه الجبال ، فأما من قرأ بكسر  
اللام فإنها هي المؤكدة للجحد ، وليس فيها دلالة ، ولا شك  
أن من المحال في العقول أن المكر يُزيل الجبال ويُزحزحها  
عن مُستقرّاتها ، وهكذا قوله ( جداراً يُريدُ أن ينقضَّ  
فأقامه ) ومن المحال حصول الإرادة في الجدار ، وقوله تعالى  
( لَهْدِمَتُ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ ) ويستحيل الهدم في  
الصلوات ، وقوله تعالى ( فأذقها الله لباسَ الجوع ) ويستحيل  
في القرية ان تذوق ، وقوله ( وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ )  
والدم لا يكون كذباً الى غير ذلك من الاستعارات الرائقة ،  
فإن كان الإفراط كله يكون قبيحاً فما هذا حاله مما ورد في  
القرآن ليس إفراطاً ، وإن كان الإفراط منقسماً الى حسنٍ  
وقبيحٍ ، فهذا الذي ورد في القرآن من أحسنه وأعجبه ، ولنورد

أمثلة الإفراط من المنظوم قال عنتره

وأنا المنية في المواطن كلها

والطعن مني سائق الآجال

ومن ذلك ما قاله بِشَّارٌ  
إذا ما غَضِبْنَا غَضِبَةً مُضْرِبَةً  
هتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ دَمًا

ومن ذلك ما قاله النابغة الذبياني  
إذا ارتعتتُ خاف الجبانُ ارتعائها  
ومن يتعلقُ حيثُ علقَ يفرقُ  
يصف امرأةً بطول عنقها ، والرعاتُ جمع رَعَتْ وهو  
القرط المعلق بالأذن ، ومن ذلك ما قاله أبو نواس يمدح  
رجلاً قال

وأخفتَ أهلَ الشركِ حتى إنَّه  
لَتَخَافُكَ النُّطْفُ التي لم تُخْلَقْ  
ويحكى أن العتابي لقي أبو نواس فقال : أما خِفتَ الله  
تعالى واستحييتَ منه حيث تقول ( وأخفتَ أهلَ الشركِ )  
البيت فقال له أبو نواس وأنت ما راقبتَ الله حيث قلت  
ما زلتُ في غمراتِ الموتِ مطرَحًا  
يَضِيقُ عَنِّي وَسِيعُ الرَّأْيِ مِنْ حِيلِي  
فلم تزل دائبًا تسعى بلطفك لي  
حتى اختلستَ حياتي من يدي أجلي

فقال له العتّابي قد علم الله وعلمت أنّ هذا ليس من  
مثل قولك، ولكنك تُعدُّ لكلِّ ناصحٍ جواباً، وقد أورد أبو  
نُواس هذا المعنى في قالبٍ آخر فقال  
كثرت منادمةُ الدماءِ سيوفه

فلقلّ ما تحتازها الأَجفانُ

حتى الذي في الرّحمِ لم يكِ صورةً

لفؤاده من خوفه خفقانُ

فانظر الى هذه المعاني ما أكذبها وما أطفها وأرقها  
وأرشقها ، وكلُّ من خرقت قرطاس سمعه فإنه يعجب منها  
غاية الإعجاب ، فأما أبو الطيب المتنبي . فإنّ له في الافراط  
اليد البيضاء ، والطريقة المثلى قال

كأنّ الهامَ في الهيجا عيونُ

وقد طبعت سيوفك من رقادِ

وقد صنفت الأسنّة من همومِ

فما يخطرُنَ الا في فؤادِ

فانظر الى هذه الاستعارة الرائقة التي أنافت على كلّ  
غاية، وجاوزت في الحسن والديباجة كل نهاية، ومن ذلك ما قاله

طَوَالَ الرُّدَيْنِيَّاتِ يَقْصِفُهَا دَمِي  
وَيَبِيضُ السُّرَيْجِيَّاتِ يَقْطَعُهَا لَحْمِي  
وَمِنْ ذَلِكَ مَا قَالَهُ أَيْضًا

أَمْضَى أَرَادَتِهِ ( فَسَوْفَ ) لَهُ ( قَدْ )

وَاسْتَقْرَبَ الْأَقْصَى ( فَثَمَّ ) لَهُ ( هُنَا )

وَأَرَشَقُ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ وَأَدْقُ قَوْلُهُ

عَقَدَتِ سَنَابِكُهَا عَلَيْهَا عَشِيرًا

لَوْ تَبَتَّغَى عُنُقًا عَلَيْهِ لَأَمْكَنَّا

وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا وَأَدْقُ ، مَا قَالَهُ أَيْضًا

كَأَنَّهَا تَتَلَقَّاهُمْ لِتَسْلُكِهِمْ

فَالطَّعْنُ يُفْتَحُ فِي الْأَجْوَابِ مَا تَسَعُ

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الرَّفَائِقِ الرَّائِقَةِ وَالْعَجَائِبِ الْفَائِقَةِ الَّتِي

فَاقَ فِيهَا عَلَى نُظْرَائِهِ ، وَسَبَقَ إِلَى غَايَتِهَا قَبْلَ وُصُولِ شُعْرَائِهِ ،

وَمَنْ وَقَفَ عَلَى حِكْمِهِ وَأَمْثَالِهِ ، عَرَفَ أَنَّ أَحَدًا مِمَّنْ كَانَ فِي

عَصْرِهِ لَمْ يَنْسِجْ عَلَى مَنَوَالِهِ

﴿ تَنْبِيهِ ﴾

اعلم أن من جملة الآداب الحسنة ، واللطائف المستحسنة ،

أن تترك الخطاب لأهل المدائح بالأمر له بكذا وكذا ،

وانما يُخْرِجُهُ مُخْرَجَ الاسْتِفْهَامِ ، اعْظَامًا لِمُدْوَحٍ وَإِجْلَالًا لَهُ ،  
عَنْ أَنْ يَكُونَ مَأْمُورًا ، وَمَا هَذَا حَالُهُ إِذَا فُعِلَ فَانْهَ يَكْسِبُ  
الْكَلَامَ جَمَالًا وَيَزِيدُهُ أُبْهَةً وَيُعْطِيهِ كَمَالًا ، كَمَا فَعَلَ الْبَحْتَرِيُّ  
فِي قَصِيدَةٍ أَنْشَدَهَا قَالَ

فَهَلْ أَنْتَ يَا بَنَ الرَّاشِدِينَ مُخْتَمِي

بِياقوتَةٍ تَبْهِي عَلَيَّ وَتُشْرِقُ

وَلَوْ قَالَ خَتَمَنِي يَا بَنَ الرَّشِدِينَ بِيَاقُوتَةٍ ، لَمْ يَكُنْ فِي الرِّشَاقَةِ  
وَالْإِجْلَالِ لِلْخَلِيفَةِ كَالْأَوَّلِ ، وَمِنْ هَذَا قَوْلُ بَعْضِهِمْ يَمْدَحُ  
بَعْضَ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ

أَمْقَبُولَةٌ يَا بَنَ الْخُلَائِفِ مِنْ فَمِي

لَدَيْكَ بُوَصْفِي غَادَةُ الشَّعْرِ رُودَهُ

فَهَكَذَا يَصْلِحُ خُطَابُ الْمُلُوكِ وَالْخُلَفَاءِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ  
مِنْ حَسَنِ الْأَدَبِ ، وَلَقَدْ غَلَا بَعْضُ مَنْ يَدْعِي الْبَلَاغَةَ وَزَعَمَ  
أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي مَخَاطَبَةُ الْمُلُوكِ وَالْخُلَفَاءِ وَالْأَكْبَرِ بِكَافِ الْخُطَابِ ،  
وَهَذَا فَاسِدٌ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ مَالِكُ الْمَلِكِ وَالْمُتَعَالَى بِصِفَاتِ  
الْكَمَالِ ، قَدْ خُوطِبَ بِكَافِ الْخُطَابِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (وَإِذْ كُرِّرْتُ رَبَّكَ كَثِيرًا ، وَقَوْلِهِ) (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى

يَا تَيْكَ الْيَقِينُ ) وقد جاء ذلك على ألسنة الفصحاء كثيراً ومنه

قول النابغة

وَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي

وَإِنْ خَلْتُ أَنَّ الْمُتَّأَى عَنْكَ أَوْسَعُ

وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ أَيْضًا

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيَّةَ

وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبٌ

نَعَمْ إِنَّمَا يُكْرَهُ ذَلِكَ فِي الْمَكَاتِبَاتِ ، دُونَ الْأَقْوَالِ ،

وَإِنَّمَا يُؤْتَى فِي الْكِتَابَةِ عَلَى جِهَةِ الْغَيْبَةِ فِي مَخَاطَبَةِ الْمُلُوكِ وَأَهْلِ

الرَّفْعَةِ لَا غَيْرُ ، وَمِنَ الْآدَابِ الْحَسَنَةِ أَنْ لَا تَخَاطَبَ الْمُلُوكَ

بِأَسْمَاءِ أُمَّهَاتِهِمْ وَجَدَّاتِهِمْ ، وَقَدْ عَيَّبَ عَلَى أَبِي نَوَاسٍ مَا أوردَهُ

فِي قَصِيدَتِهِ الْمِيمِيَّةِ الَّتِي امْتَدَحَ بِهَا الْأَمِينَ مُحَمَّدَ بْنَ هَرُونَ

الرَّشِيدِ حَيْثُ قَالَ

أَصْبَحْتَ يَا ابْنَ زُبَيْدَةَ ابْنَةَ جَعْفَرَ

أَمَلًا لِعَقْدِ حَبَالِهِ اسْتِحْكَامُ

فَإِنْ ذَكَرَ أُمَّ الْخَلِيفَةِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ قَبِيحٌ ، وَكَانَ لَهُ

مَنْدُوحَةٌ عَنْ ذِكْرِ مِثْلِ ذَلِكَ بِأَبِيهِ أَوْ بِجَدِّهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ

سائر المدائح المعروفة عند الشعراء المفلّحين ، وقد أُخِذَ عليه  
ايضاً قوله في قصيدة اخرى  
وليس كجدّتيه أمّ موسى اذا نُسِبَتْ ولا كالخيزران  
فان مثل هذا يعدُّ في الركيك من الشعر فضلاً عن أن  
يكون معدوداً من فصيحته ، وهكذا فإنه قد أُخِذَ على جرير  
في مدح عمر بن عبد العزيز بذكر أمه حيث قال  
وتبني المجد يا عمر بن ليلى وتكفي المجلّ السنّة الجمادا  
فهذا وامثاله مما يُعاب ذكره ، وينبغي للشاعر والخطيب  
تجنّبه كما أشرنا اليه ، لا يقال فكيف قال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم في الزبير لما أخبر أنه سيقتل : بَشْرٌ قَاتِلَ ابْنِ  
صَفِيَّةَ بِالنَّارِ ، فنسبه الى أمّه ، لانا نقول هذا مخالف لما نحن  
فيه ، فانه لا مدح بذكر امهات الخلفاء والملوك ، لانه لا فضل  
فيهن ، بخلاف حديث الزبير ، فإن الرسول صلى الله عليه  
وسلم ما قال ذلك الا ليرفع قدره في قُربِ نسبه منه ،  
لكونه ابن عمّته وهكذا العذر في قوله تعالى ( يا عيسى  
بن مريم ، فإن الله تعالى انما خاطبه بذكر أمّه ، لما كان لا أبَ  
له ، فيُذكَرُ باسم ابيه فكان ذكر الام ضرورة في حقه

( الفصل الخامس )

( في الارصاد )

اعلم أن الإِِرْصَادَ في اللغة مصدر أَرْصَدَ الشئ ، اذا  
أعدّه ، ومنه قوله تعالى ( ان رَبَّكَ لَبِاِرْصَادٍ ) وهو مفعالٌ ،  
من رصده ، كالمليقات ، من وَقَّته ، والغرض أن الله تعالى  
أعدَّ العقاب للعصاة من غير أن يفوتوه بهرب ولا امتناع ،  
وأرصدتُ السلاح للحرب ، وهو في لسان علماء البيان مقبول  
في المنظوم والمنثور على أن يكون أول الكلام مرصداً لفهم  
آخره ، ويكون مُشعراً به ، فمتى قرَعَ سَمْعَ السامع أولُ  
الكلام فإنه يفهم آخره لا محالة ، فما هذا حاله من منشور  
اللفظ ومنظومه يُقال له الإِِرْصَادُ ، واشتقاقه هو مما ذكرناه ،  
فهذا هو الأخلق في تلقيبه بالإِِرْصَادِ لما ذكرناه ، وقد حُكي  
عن أبي هلال العسكري وكان متقدماً في علم البلاغة على  
غيره أخذاً منها بحظٍّ وافر ، أنه لقب هذا النوع من الكلام  
بالترشيح ، وهذا لا وجه له ، بل تلقيبه بالإِِرْصَادِ أخلقُ لما  
أشرنا اليه في الاشتقاق ، ولنورد أمثله ليتضح الأمر فيه  
( المثال الاول ) من كتاب الله تعالى ، وهذا كقوله

تعالى ( وما كان الناسُ الاَّ اُمةً واحدةً فاختلفوا ولولا كلمةٌ  
سبقتُ من ربك لَقُضِيَ بينهم فيما كانوا فيه يختلفون ) فاذا  
قرع سمع السامع قوله تعالى ( وما كان الناسُ الاَّ امةً واحدةً  
فاختلفوا ) ثم وقف على قوله ( ولولا كلمةٌ سبقت من ربك  
لَقُضِيَ بينهم ) فانه يعرف لا محالة لما سبق من تصدير  
الآية أن تَمَّتْهَا وتَكَمَّلَتْهَا ( فيما كانوا فيه يختلفون ) لما تقدم  
ما يُشعر بذلك ويدلّ عليه ، ومن ذلك قوله تعالى ( فمنهم  
مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ، ومنهم مَنْ أَخَذْتَهُ الصَّيْحَةُ ومنهم  
مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ، ومنهم مَنْ أَنْغَرْنَا ، وما كان الله  
ليظلمهم ) فاذا وقف السامعُ على قوله ( ولكن كانوا ) عرف  
لا محالة أن بعده ذكر ظلم النفوس لما كان في الكلام  
الأول ما يدل عليه دلالة ظاهرة ، وأمارة قوية ، وعلى نحو  
هذا جاء قوله تعالى ( مثلُ الذين اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ  
أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ  
لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ) فاذا وقف السامع على قوله ( وإنَّ أوهنَ البيوتِ  
البيوتِ ) فإنه يعلم لا محالة أن بعده بيتُ العنكبوتِ ، ومن  
هنا قوله تعالى ( ذلكَ جزيناكم بما كُفِرُوا بِهِ لِيُبْجِزَ الْإِسْلَامَ )

الكفور) فاذا وقف السامعُ على قوله تعالى (وهل يُجازى) بعد ما تقدم من الكلام والإحاطة به ، فانه يعلم لا محالة أنه ليس بعد قوله وهل يجازى الآ (الكفور) وعلى هذا ورد قوله تعالى (هل جزاء الإحسان الا الإحسان) فاذا وقف السامع على قوله هل جزاء الاحسان ، تحقق لا محالة أن ما بعده قوله (الا الإحسان) لما في ذلك من الملائمة وشدة التناسب ، ومثل هذا محمودٌ في الكلام كله نثره ، ونظمه ، وهو في كتاب الله تعالى أكثرُ من أن يُحصى ، وما ذاك الآ لأن خير الكلام ما دلّ بعضه على بعض ، وأحقُّ الكلام بهذه الصفة هو كلام الله ، فانه البالغ في الذروة العليا من الفصاحة في ألفاظه ، والبلاغة في معناه

### ( المثال الثاني )

من السنة الشريفة وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم : فما بعد الموت من مُستعْتَب ، وما بعد الدنيا دارٌ الا الجنة أو النار ، فإنَّ السامع إذا وقف على قوله ، فما بعد الدنيا من دار ، فانه يتحقق لا محالة أن ما بعده ( الا الجنة أو النار ) لما بينهما من شدة الملائمة وعظيم المناسبة ، ومن هذا قوله عليه السلام لما

سار لفتح خيبر ، فلما رآها قال الله أكبرُ خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين ، فان السامع اذا وقف على قوله : نزلنا بساحة قوم ، عرف أن ما بعده ، فساء صباح المنذرين ، لأن قوله اذا نزلنا بساحة قوم . فيه وعيدٌ عظيم لهم بالبوار والإهلاك فهو دالٌّ على قوله فساء صباح المنذرين ، لانه لا صباح أعظم في البلاء من ذلك اليوم لما اشتمل عليه من القتل والأخذ ، ونهب المال ، ولا بلاء مثلُ هذا ، وهذا وإن كان قد سبق به القرآن لكنه قد تكلم به في ذلك اليوم ، فلا جرم أوردناه في أمثلة السنة ، وإنما عظم موقع الآية وكان لها من الفخامة وعلو الشأن في البلاغة ، لما كانت واردة على جهة التمثيل ، مثل حاتم في عدم التفاتهم الى ما أنذروا من العذاب الاليم بحال من أنذر بحصول الجيش فلم يلتفتوا ولا أخذوا أهبة الحذر منه حتى نزل بدارهم فقطع دابرهم واستأصل شأفتهم ، فمن أجل هذا لاثم قوله فاذا نزل بساحتهم الى آخر الآية ، حتى فهم آخرها قبل ذكره ، ومن هذا قوله عليه السلام في صفة القرآن : فاذا التبتست عليكم الأمور كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن ، فانه شافع مشفع

وشاهد مُصَدِّقٌ من جعله أَمَامَهُ قَادَهُ الى الجنة ، ومن جعله  
خَلْفَهُ سَاقَهُ الى النار ، وهو أوضح دليل الى خير سبيل ، مَنْ  
قال به صُدِّقٌ ، ومن عمل به أُجِرَ ، ومن حَكَمَ به عَدَلٌ ،  
فانظر الى هذا الكلام ما أعجب تلاؤمه وأعظم تناسبه ، فكان  
بعضه آخِذًا بأعناق بعض ، فلو سَكِتَ على كلِّ كلمةٍ  
لكانت مُعْرِبَةً بِأختها قبل ذكرها ، وهذا هوشَانُ الإِِرْصَادِ  
وحقيقةُ أمره ، فلو سكت على قوله ( فاذا التبتست عليكم  
الأمور ) لَأُفْهِمَ بقوله ( كقطع الليل المظلم ) لأن اللبس  
هو أن لا يُهْتَدَى فيه للأمر ، كما أن الظلمة لا يُهْتَدَى فيها  
للطريق وقوله ( شافع ) دالٌّ على القبول لأنه في معرض  
المدح ، وإِِعْلَامٌ بكونه مُشْفَعًا وقوله ( شاهد مصدق )  
لأن الصدق أحسن ما يعرض للشهادة عند الحكام ،  
فاذا كانت المدحُ فأحسن أحوالها كونها صادقة وقوله  
( من جعله أمامه ) لأن كل من كان أمامك فهو آخِذٌ  
بزمامك كما يقاد الجملُ بزمامه من قُدَّامه ، وهو كناية عن  
العمل بأوامره ونواهيهِ وقوله ( ومن جعله خلفه ساقه الى النار )  
لأن من كان خلفك فهو يسوقك كما تساق الدابة من خلفها ،

وهو كناية عن إهماله وتضييع أحكامه وترك العمل بها ، فلو سكت على قوله (أمام) و(خلف) لا فهما ما وراءهما من ذلك ، ثم قال (وهو أوضح دليل) فأفهم خير السبيل من جهة أن الدليل لا بد له من ثمرة وهو الهداية الى الطريق ، ثم قال (من قال به صدق) لانه لا يعرض للقول الحسن الا صدقه (ومن عمل به أُجر) لانه لا ثمرة للعمل الا الأجر ، وقوله (ومن حكم به عدل) لانه لا جدوى للحكم الا اذا كان عادلا فحصل من هذا أن الأمر على ما قلناه من أن هذه الكلمات كلها ملتزمة كأنها أفرغت في قالب واحد وفي هذا كفاية ليقاس عليه غيره

### ( المثال الثالث )

من كلام أمير المؤمنين كرم الله وجهه ، فمن ذلك كتاب كتبه الى بعض عماله يُوصيه بما هو بصدده ، أما بعدُ فإنك ممن استظهر به على اقامة الدين ، وأقمع به نخوة الأثيم ، وسد به أفواه الثغر المخوف ، فاستعن بالله على ما أهوك ، واخلط الشدة بضغث من اللين ، وارفق ما كان الرفق أرفق ،

واعْتَزِمَ بالشدة حيث لا تُغْنِي عنك إلا الشدة ، واخفض  
للرعية جناحك ، وَأَلِنْ لَهُمْ جانبك ، وآسِ يَدِيهِمْ في اللحظة ،  
والنظرة ، والاشارة ، والتحية ، حتى لا يطعم العظماء في  
حَيْفِكَ ، ولا ييأسُ الضعفاء من عدلك والسلام ، فانظر الى  
كلامه هذا لقد جمع فيه محامد الاخلاق الشريفة وأتى فيه  
بمحاسن الشيم السامية مع ما أشار اليه من حسن الإيالة وجميل  
السياسة ، وضمّ فيه من آداب الولاة وتعليم معاملة الخلق ،  
والرفق بالرعية . والإرشاد الى مصالح السيرة فيهم مع ما اشار  
اليه من الإِِرْصَاد التام ، فان كلّ كلمة من هذا الكلام مناسبة  
لما بعدها وملائمة له على أكمل نظام ، وأعجب إِتِّمَام ، فلو وقف  
على قوله ( فانك ممن استظهر به ) لفهم ما بعدها ولو وقف  
على قوله ( وأقم به ) لفهم ما وراءها ، لأن الاستظهار تقوية  
واعتماد ، والقمع هو الكفّ وهو ملائم للنخوة وهو العلوّ  
والكِبَرُ وهكذا قوله ( واخفض ) فلو وقف عليه لفهم منه  
الجناح ، لأنه يستعار كثيرا في لين الجانب كما قال تعالى  
( واخفض جناحك للمؤمنين ) وهكذا القول في سائر ألفاظه ،  
فإنها متلائمة متناسبة يدلّ بعضها على بعض

(المثال الرابع)

(ما ورد من كلام اهل البلاغة)

واعلم أن الشعراء المفلقين يفتخرون بما كان أول البيت  
دالاً على آخره ، وفي هذا يقول بعضهم

خُذْهَا إِذَا أُنْشِدَتْ فِي الْقَوْمِ مِنْ طَرْبِ

صَدُورِهَا عُرِفَتْ مِنْهَا قَوَافِيهَا

يُنْسَى لَهَا الرَّابِئُ الْعَجْلَانُ حَاجَتَهُ

وَيُصْبِحُ الْحَاسِدُ الْغَضْبَانَ يُطْرِئُهَا

وهذا هو الإِِرْصَادُ كما قلناه ، ومن جيد الإِرْصَادِ ما قاله

البحترى

أَحَلَّتْ دَمِي مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ وَحَرَمَتْ

بِلا سببٍ يَوْمَ الْإِقَاءِ كَلَامِي

فَلَيْسَ الَّذِي حَالَّتْهُ بِمَحَلِّ

وَلَيْسَ الَّذِي حَرَمَتْهُ بِمَحْرَامِ

فليس يذهب على السامع وقد عرف البيت الأول

وصدر البيت الثاني أن عجزه ما قاله البحترى ، وقد جرت

العادة عند إنشاد الشعر بانتهاء عجز البيت من لسان منشدته

قبل ذكره ويسبق اليه فيُنشده قبل إنشاده له لما كان المعنى  
مفهوماً قبل ذكره ، وهذا هو الذي نريده بالإِِرصاد ومن هذا  
قول بعض البلغاء

ولربما اعتصمَ الحليمُ بجاهلٍ \* لا خير في يُمنى بغير يسارٍ  
فهذا اذا قرع السامعَ صدرُ البيت ووقف على قوله ( لا  
خير في يمنى ) فانه يتحقق أن لا بُدَّ من ذكر اليسار لا محالة ،  
لما فيه من الملائمة له والمناسبة ، ومن ذلك ما قاله زهير

وأعلمُ ما في اليوم والامس قبله

ولكنني عن علم ما في غد عم

فالأزمنة ثلاثة ، الماضي ، والحاضر ، والمستقبل ، فلما  
ذكر حكم الماضي ، والحاضر ، عُرِف من حاله أن لا بُدَّ من  
ذكر المستقبل بحكمه ، وهو الجهل بما يكون غداً ، فلاجل  
هذا كان الإِِرصاد فيه سابقاً معلوماً ، ومن ذلك ما قاله ابو تمام  
فإن يك جرمٌ أو أتيتُ بهفوةً

على خطأ مني فعذري على عمد

فما هذا حاله من أحسن ما يأتي في الإِِرصاد فانه لما  
ذكر الخطأ حسن وقوع العمد بعده وكان مفهوماً عند الوقوف  
على قوله ( على خطأ مني ) بلا مرية ، ومن ذلك ما قاله ايضاً

خرقاء تلعب بالعقول مزاجها . كتلعب الأفعال بالأسماء  
فإنه لما ذكر الأفعال علم لا محالة أن عجز البيت أن يأتي  
بلفظة الاسماء لما سبق ذكر الأفعال ، فمن قرع مسامعه هذا  
البيت وكان له ذوق في العريية ، فانه يعرفه قطعاً وقال أيضا  
مودّة ذهب أثمارها شبه

وهمة جوهرة معروفها عرض

فانه لما ذكر الذهب جعل في مقابله الشبه ولما ذكر  
الجوهر علم أن مقابله العرض ، وهذا إرصاد حسن ، وحكى  
ابن الاثير عن بعض علماء البيان أنه ينبغي لمن يتكلم في  
المنظوم والمنثور أن يجنب كلامه الالفاظ المصطلح عليها بين  
النحاة والمتكلمين واهل الصناعات وغيرهم ، وهذا فاسد لا وجه  
له فإن الشاعر والكاتب يخوضان في كل شيء ولا يقتصر  
خوضهما على فنّ دون فنّ ، ولا اصطلاح دون اصطلاح ،  
ولهذا فانك تراهم إذا استعملوا شيئاً من الكلمات المصطلح  
عليها في العلوم او في الصناعات في أشعارهم ورقائهم ، وجدت  
له أحسن موقع ، وازداد جمالها ، وظهر رونقها وكاملها ، فهذا  
ما أردنا ذكره في معاني الإرصاد

## ﴿ الفصل السادس ﴾

( في ذكر التخلص والاقتضاب )

وهما واديان من أودية البلاغة ، ومن حكمهما يظهر فضل  
الناظم والناثر ، وكلُّ واحد منهما يرد في منشور الكلام ومنظومه ،  
لأن معنهما حاصل فيهما ، فأما الاقتضاب فلا يظهر خلاف  
في وروده في القرآن الكريم ، وإنما الخلاف في ورود  
التخلص في القرآن ، وحكى عن ابى العلاء محمد الغامى أنه  
أنكر وروده في التنزيل ، وزعم أن كتاب الله تعالى خال عنه ،  
وهذا فاسدٌ ، فإن كتاب الله تعالى لا وادٍ من أودية البلاغة  
الا وهو آخذٌ منه بنصيب ، وسنورد من ذلك ما يدل على  
وقوعه فيه ، فاذا عرفت هذا فلنذكر التخلص ، ثم نردفه .  
بذكر الاقتضاب فهذان ضربان نفضلهما بمعونة الله تعالى

( الضرب الأول في التخلص )

ومعناه في السنة علماء البيان ، أن يسرد الناظم والناثر  
كلامهما في مقصد من المقاصد غير قاصد اليه بانفراده ،  
ولكنه سببٌ اليه ثم يخرج فيه الى كلام هو المقصود ، بينه  
وبين الاول عُلُقَةٌ ومناسبة وهذا نحو أن يكون الشاعر

مستطلعا لتقصيده بالغزل حتى اذا فرغ منه خرج الى المدح  
على مخرج مناسب للأول ، بينهما أعظم القرب والملازمة  
بحيث يكون الكلام آخذاً بعضه برقاب بعض كأنه أفرغ في  
قالب واحد ، ثم يتفاضل الناس في التخلص ، فعلى قدر  
الاقتدار في النظم والنثر يكون حسن التخلص ، والتخلص في  
النثر أسهل منه في النظم ، لأن الناظم يراعى القافية والوزن ،  
فيكون في ذلك صعوبة بخلاف النثر ، فإنه لا يراعى قافيةً  
ولا يحافظ على وزن ، بل هو مطلق العنان يضع قدمه حيث  
شاء ، فمن أجل ذلك كان أشق على الناظم منه على النثر ، لما  
ذكرناه ، ولندكر في ايضاحه أمثلة أربعة

### ( المثال الاول )

( من كتاب الله تعالى )

وهو قوله ( واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه  
ما تعبدون قالوا نعبد أصناماً فنظّل لها عاكفين قال هل  
يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا  
آباءنا كذلك يفعلون قال أفرايتم ما كنتم تعبدون أنتم  
وأبائكم الأقدمون فإنهم عدوا لي الآ رب العالمين الذي

خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا عَرِضْتُ  
فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ( ثُمَّ قَالَ ( رَبِّ هَبْ لِي  
حُكْمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ) ثُمَّ أَرَدَفَهُ بِقَوْلِهِ ( وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ  
لِلْمُتَّقِينَ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ) ثُمَّ قَالَ ( فَكُفُّوا فِيهَا  
هُمُ وَالْغَاوُونَ وَجَنُودُ إبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ) إِلَى قَوْلِهِ ( فَلَوْ أَنَّ لَنَا  
كُرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ) فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا الْكَلَامِ الَّذِي  
يُسْكِرُ الْعُقُولَ رَاحِيَةً ، وَيَسْحَرُ الْأَبْطَابَ تَحْقِيقُهُ ، وَهُوَ غَايَةُ  
مُنِيَّةِ الرَّاغِبِ ، وَنَهَايَةُ مَقْصِدِ الطَّالِبِ ، فَإِنَّهُ مَتَى أَنْعَمَ النَّظْرُ فِي  
مَبَانِيهِ ، وَتَدَبَّرَ أَسْرَارَهُ وَمَعَانِيَهُ ، عَلِمَ قَطْعًا أَنَّ فِيهِ غِنًى عَنِ  
تَصْفِيحِ الْكُتُبِ الْمُؤَلَّفَةِ ، وَكِفَايَةِ عَنِ الدَّفَائِرِ الْمُؤْتَلَفَةِ ، فِيمَا  
يُقْصَدُ مِنْ مَعْرِفَةِ هَذَا الْأَسْلُوبِ مِنْ عُلُومِ الْبَلَاغَةِ ، وَقَدْ  
اشْتَمَلَ عَلَى تَخْلِصَاتٍ عَشْرَةٍ مُنْتَظِمَةٍ نَوَّضِحُهَا بِمَعُونَةِ اللَّهِ تَعَالَى

### ( التخلص الأول )

هُوَ أَنَّهُ لَمَّا أَمَرَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتِلَاوَةِ  
نَبِيِّ إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَمَا كَانَ لَهُ مَعَ أَبِيهِ وَقَوْمِهِ  
مِنَ الْخُصُومَةِ وَالْجِدَالِ فِي عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ ،  
صَدَّرَ الْقِصَّةَ بِذَلِكَ شَرْحًا لَصَدْرِهِ وَتَسْلِيَةً لَهُ فِيمَا يُلَاقِي مِنْ

فريش ، ثم خرج الى شرح حال إبراهيم وما جرى له ، فانظر الى حسن ما رتب إبراهيم كلامه مع أهل الشرك حين سأله عما يعبدون سؤال مُقرر ، لا سؤال مستفهم ، فأجابوه بما هم عليه من ذلك ، وبالغوا في الجهل والافراط في النفي ، فقالوا : نعبُدُ أصناماً ولقد كان يكفهم ذلك في الإجابة عما سألهم ، لكنهم تعمقوا تهالكاً في الإصرار وتمادياً في نفارهم عما دعاهم اليه بقولهم ( فنظّل لها عاكفين )

( التلخيص الثاني )

انهم لما أجابوه أراد أن يحقق عليهم الأمر حتى لا يكون لهم سبيلٌ الى الجحود ، فنرجع عن ذلك الى إبطال ما قالوه من عبادة آلهتهم وأنحى عليها من البرهان جُزأً مقضباً ، ومن الإخام كلاماً منظماً مهذباً ، فصدّره بالاستفهام تأدباً منه وملاطفة لهم ، ولم يأت بحجته على جهة القطع منه بها ، كمن ينكر الحدوث في العالم فتقول له هل يجوز عليه التغيُّر ولم يقل من أوّل وهلة إن قولكم هذا باطل لا حقيقة له ، ثم أورد في إبطال إلهيتها أدلة ثلاثة ، أولها انها لا تسمع دعاء ، ولا تدرك نداء ، لكونها جامداً حجارة صلدة لا حياة لها

ولا حراك بها ، ومن هذه حاله فكيف يكون أهلاً للعبادة ،  
وثانيها قوله (أو ينفعونكم) لأن من كان فيه نفع فهو حقيقٌ  
بما يفعل في حقه من رفع المنزلة وعلو الدرجة ، وثالثها قوله  
(أو يضرّون) لأن كل من قدر على النفع فهو قادرٌ على الضرّ  
وعكسه أيضاً ، لأن حق من كان قادراً على شيء أن يكون  
قادراً على ضده ، لأن القدرة صالحة للامرين الضدين جميعاً  
والمختلفين ، فهذه إلزاماتٌ ثلاثة لا محيص لهم عنها ، فإذا  
كان حالها هذه الحال من عدم السمع ، واستحالة النفع  
والضر منها ، فلا يليق بحالها العبادة التي هي نهاية الخضوع  
والذلة للمعبود ، مع عدم الأهلية والاستحقاق ، هذا محال في  
العقول بلا مرية ، ثم أجابوه بالإقرار بما ألزمهم من عدم ذلك  
منها فزاد إقرارهم بالإلزام تأكيداً وإخفاءً فقالوا الأمر فيها  
كما قلته لكننا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، فنادوا على أنفسهم  
بالجهالة ، وأقروا بركوب الضلالة ، وأنهم ما فعلوا ذلك عن  
نظر وتفكر وتدبر ، فوصفوا نفوسهم بالقصور عن مراتب  
النُّظار ، وانخرطوا في سلك أهل الغباوة والأغمار ، وزعموا أنه  
لا عُمدة لهم في ذلك الآ وُجْدان الآباء ، واقتفاء آثار  
الاسلاف والرؤساء

( التلخص الثالث )

أنه لما تحقق تعويلهم على التقليد خرج الى ابطال أمره وتزييفه بقوله ( أفرايتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ) فأورد الرد عليهم بالاستفهام على جهة الإنكار متعجباً من حالهم حيث جعلوا ما لا يكون ، حجة وبرهاناً ، وليس حجة ، بل هو شبهة منكورة ، وأخرجه عن أن يكون حجة ، كأنه قال أفلا ترون ما جعلتموه مستنداً لعبادتكم أنتم ومن سلف من آباؤكم القدماء ، هل مثله يعبد مع كونه لا يسمع ولا ينفع ولا يضر ولا يملك شيئاً ، وفيه تعريضٌ بحالهم ، وتجهيلٌ لهم وأن من هذه حاله من عبادة حجر لا يضر ولا ينفع فلا عقل له ، ولا يكون معدوداً من العقلاء

( التلخص الرابع )

هو أنه لما ذكر أنهم لا يستحقون العبادة خرج الى ذكر عداوته لمن هذه حاله ، فلماذا قال عقيب ذلك ( فإنهم عدو لي ) كأنه صور المسئلة في نفسه على معنى إني فكرت في أمري ونظرت في حالي ، فرأيت أن عبادتي لها عبادة

للشيطان العدو فاجتذبتُها، وإنما قال (فإنهم عدوٌّ لي) بالإضافة  
إلى نفسه ولم يقل فإنهم عدوٌّ لهم، ليرِيهم بذلك أنها نصيحة  
ينصح بها نفسه ليكون ذلك أدعى لهم إلى القبول لقوله،  
وأَبَعَثَ إلى الاستماع لخطابه، ولو قال: فإنهم عدوٌّ لكم، لم  
يُفِذْ هذه الفائدة، وكان القياس في الخطاب بالضمير إن  
يقول: فإنها عدوٌّ لي، أو فإنهن، لأنه راجع إلى الاصنام،  
والضمير في مَنْ لا يعلم أن يكون على هذه الصورة، ولكنه  
أورده على ضمير العقلاء لأمرين، أما أولاً فلا أنهم لما زعموا  
أنها تستحق العبادة، وأنها يوجد من جَهِتِها النفع، ودفع  
الضرر، صارت لذلك بمنزلة العقلاء، وأما ثانياً فلا أنهم لما كانوا  
في الإنكار على سواء، وجَّه الخطاب إليهم على جهة تغليب  
حالهم على حالها

(التخلص الخامس)

هو أنه لما ذكر أنها غير مستحقة للعبادة وذكر العداوة  
لها خرج إلى ذكر الله تعالى فأجرى عليه تلك الصفات  
اللائقة بذاته من إعظام حاله، وإظهار جلاله، وتفخيم  
شأنه، وتعميد نعمة من لدن إنشائه، وإبداع ذاته إلى حين

مرضه ، ودُنُوّ وفاته ، مع ما يرجى في الآخرة من عفوه ورحمته ،  
ليعلم أن كل من هذه حاله فهو حقيق بالعبادة واجبٌ على  
الخلق الخضوعُ له ، والاستكانة لعظمته ، وفيه تعريضٌ بحال  
ما يعبد من دونه في الاتصاف بنقائص هذه الصفات كما ترى  
(التخلص السادس)

هو أنه لما فرغ مما ذكرناه خرج الى ما يكون ملائماً له  
ومناسباً فدعا الى الله تعالى بدعوات أهل الإخلاص ، وابتهل  
إليه ابتهاًل أهل الأمانة ، لأن الطالب من مولاه اذا قدم  
قبل سؤاله والتضرع اليه ذكره بالصفات الحسنى والاعتراف  
بنيعمه ، كان ذلك أسرع للإجابة ، وأنجح للمطلوب ، ولهذا  
فإن كل من أراد حاجة الى الله تعالى فإنه يستحب له تقديم  
الثناء على الله بما هو أهله ، وذكر صفاته وحمده وشكره ،  
ثم يسأل حاجته بعد ذلك فإن ذلك يكون أقرب للإجابة  
وأسنى لإنجاح الرغبة وإنجازها كما ورد ذلك في الآداب  
الشرعية

(التخلص السابع)

هو أنه لما فرغ مما يخصه من الدعاء لنفسه ولأبيه  
بالدعوات الصالحة خرج عنه الى ذكر البعث يوم القيامة  
ومجازاة الله من آمن به واتقاه وأخلص له العبادة بالجنة وأن  
كل من عصاه وعبد غيره فإنه يُجازيه بالنار، فجمع في ذلك  
بين الترغيب في الطاعة والترهيب من المعصية وضم إليه ذكر  
الجنة وإزلاؤها لاهلها من أهل التقوى وذكر النار وتبريزها  
لاهلها من أهل الغواية كعادته تعالى في كتابه الكريم، اذا  
ذَكَرَ وَعَدَا أَتْبَعَهُ بِالْوَعِيدِ، وعكسه أيضا ليكون حاصلًا  
على الكمال ومراعاة المطابقة في كل الأحوال

(التخلص الثامن)

هو أنه لما فرغ مما ذكره عاد الى سؤال المشركين ثانيًا  
عند معاينة الأهوال في يوم الجزاء بقوله (وقيل لهم أينما كنتم  
تعبدون من دون الله) وإنما أوردته على جهة التوبيخ والاستهزاء  
وانهم لا ينصرونكم في دفع السوء عنكم، ولا ينتصرون في دفع  
ما يخصهم أنفسهم بحال، ثم وصف حالهم في النار بقوله  
(فككبوا) اي الآلهة والفاوون، والكبكببة تكريرٌ

الكبِّ ، لأنه اذا أُلْقِيَ في النار فانه يُكَبُّ فيها مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها ، فجعل تكرير اللفظ دلالة على تكرير المعنى على جهة المطابقة ، اللهم أجرنا من عذابك برحمتك الواسعة

( التلخص التاسع )

هو أنه لما فرغ من ذلك خرج الى حكاية ما يقول أهل النار في النار من الخسومة الناشئة بينهم ، وإظهار الحسرة والندامة المفرطة على ما كان منهم من عبادة غير الله ومساواته بمن لا يساويه . وانقطاع ما في أيديهم من شفاعة شافع أو صداقة صديق كما يكون للمؤمنين ، فان شفعاءهم الملائكة والانبيا وأصدقاؤهم هم اهل الايمان والتقوى ، فأما الكفار فلا شيء لهم من ذلك ، فعند هذا تعظم الحسرات وتنقطع الافئدة حسرةً وإياساً عن النفع والخلاص عما هم فيه

( التلخص العاشر )

هو أنه لما فرغ من ذلك خرج الى ذكر تمنّيهم الرجعة الى الدنيا بقوله ( فلو أن لنا كرة ) فنزع عما كنا عليه من عبادة غير الله وسلوك طريق التقوى ، والكون من جملة المؤمنين في ذلك ، و ( لو ) ههنا بمعنى ليت فلا تفتقر الى جواب مقدر

وجوابها فتكون ، أو تكون باقية على بابها ، وجوابها يحذف كثيرا وتقديره فلو رجعنا لفعلنا كيت وكيت من الافعال الصالحة ، فانظر الى هذه الآية الشريفة كيف اشتملت على هذه التخلصات اللطيفة مع ما حازته من العجائب الحسان والأسرار ذوات الأفتان ، والعجب من الغامى حيث أنكر التخلص أن يكون واقعا في كتاب الله تعالى ، وما ذاك الا من أجل اشتغاله بفن الشعر والكتابة عن الاطلاع الى أسرار كتاب الله تعالى ، وهو أظهر من أن يحتاج الى طلب وعناية خاصة في سورة الاعراف وسورة يوسف ، فانه سلك فيهما فنونا كثيرة ، وتخلص الى أودية مختلفة ، والقرآن كله مملوء منه ، لانه لا يزال تكرر الكلام من وعد الى وعيد ، ومن ذكر قصص الى ذكر أمثال ، ومن ذكر أمر الى نواهٍ ، ومن ترغيب الى ترهيب ، الى غير ذلك فكيف يمكن إنكار ما هذا حاله وهو أوسع ما يكون في التنزيل

(المثال الثانى)

(من السنة النبوية)

وهذا كقوله عليه السلام وقد رأيتُ الليلَ والنهارَ كيف

يُليان كلَّ جديد ، ويقرِّبان كلَّ بعيد ، ويأتیان بكل موعود  
ثم قال بعد ذلك فاذا التبتت عليكم الأمورُ كقطع الليل المظلم  
فعلیکم بالقرآن فانه شافعٌ مشفعٌ وشاهدٌ مصدقٌ فمن جعله  
أمامه قاده الى الجنة ، ومن جعله خلفه ساقه الى النار ، هو  
أوضح دليل الى خير سبيل فانظر الى ما أودعه في هذا الكلام  
من التخلص الرائق ، فيينا هو يذكر حال الليل والنهار وحكماهما  
في المكونات إذ خرج الى حال القرآن ووصفه ، وأنه فيه  
الايضاح لكل مشكل ، وبيان لكل أمر ملتبس ، التخلص  
الى ذكره بأحسن التخلص ، وهكذا قوله عليه السلام كأن  
الموت فيها على غيرنا كُتِبَ ، وكأنَّ الحق فيها على غيرنا وَجَبَ ، الى  
ان قال طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، فيينا هو يذكر  
الموت وأهواله وإعراض الخلق عن ذكره إذ خرج الى ذكر  
النَّدْب الى اشتغال الانسان بعيب نفسه وإهمال عيوب الخلق ،  
فهذا من المخالص البديعة الى غير ذلك في كلامه عليه السلام

### ﴿ المثال الثالث ﴾

( من كلام أمير المؤمنين كرم الله وجهه )

وهو في كلامه أكثر من أن يُحصَر ، وخاصة في العهود

الطويلة والكتب المنتشرة ، والكلمات الواسعة ، فانه يخرج فيها الى اودية كثيرة ، فيننا يتكلم في أسلوب الوعظ ، اذ خرج الى وصف الرسول صلى الله عليه وسلم ، او الى وصف القرآن او الى غير ذلك من الأساليب المختلفة فيما يكون معدوداً من محاسن التخلصات ، ومن أراد الوقوف من كلامه على محاسن التخليص فليطالع من ذلك ما أوصى به الحسن بن علي في وصية له ، فانه جمع له من محاسن الآداب وأجمعها ، وأعظم الحكيم وأنفعها ، ما لا يحتمله حصر ، ولا يشتمله عد ، ومن ذلك العهد الذي كتبه للأشتر النخعي لما أعطاه عمالة مصر وأدبه بهذا العهد ، وجمع له فيه من محاسن الآداب وصفة الحكمة وفصل الخطاب ، ومن ذلك خطبته المسماة بالغراء فانه جمع فيها من الثناء على الله تعالى وذكره بالصفات اللاتقة به وتنزيهه عما لا يليق بحاله ، ومن جيد كلامه في التخلص قوله أرسله على حين فترة من الرسل وانقطاع من الوحي وطول هجعة من الأمم واعتزام من الفتن وانتشار من الامور وتلاظ من الحروب ، والدنيا كاسفة النور ، ظاهرة الغرور ، على حين اصفرار من ورقها ، وإيأس من ثمرها ، وإغوار من مائها ، قد درست أعلام الهدى ، وظهرت أعلام الردى ،

فهي مُتَّجِهَةٌ لاهلها، عابسةٌ في وجه طالبيها، تُمرُّها الفتنة  
وطعامها الخيفة، وشعارها الخوف، ودثارها السيف،  
فاعتبروا عباد الله واذكروا تيك التي آباؤكم واخوانكم بها  
مرتنون، وعليها محاسبون، ولعمري ما تقادمت بهم ولا  
بكمُ العهود، ولا خلت فيما بينكم وبينهم الأحقاب والقرون،  
فهذا الكلام مشتمل على تخلصاتٍ متعددة، فيينا هو يذكر  
حال الرسول صلى الله عليه وسلم وما من الله به على الأمم، إذ  
خرج الى حال الدنيا وصفتها وانقطاعها، إذ خرج الى الوعظ  
والتذكير، وما من كلامٍ من كلامه وإن كان بسيطاً إلا  
وتخلص فيه مخالص كثيرة، كلُّ ذلك فيه دلالةٌ على تفتُّنه في  
الكلام ومملكته لزماته، واستيلائه على خاصته وعامة.

### ﴿ المثال الرابع ﴾

( ما ورد من كلام البلغاء )

فمن ذلك ما قاله ابن الأثير في كتاب كتبه الى بعض  
اخوانه يذكر فيه الربيع فقال فيه : وكما أن هذه الاوصاف في  
شأنها بدیعة فكذلك شأني في شوقه بدیعٌ ، غير أنه في حرّة  
فصل مصيف ، وهذا فصل ربيع ، فأنا أملى أحاديثه العجيبة

على النوى وقد عرفت حديث من قتله الشوق فلا أستقص  
حديث من قتله الهوى ، فيينا هو يذكر الربيع اذ خرج الى  
ذكر الاشواق ، ومن هذا قوله ايضا يصف البرد لما كان في  
بلاد الروم فقال ومما أشكوه من بردها أن الفرو لا يلبس  
بها الا في شهر ناجر ، وهو قائم مقام الظل الذي يبرد به من  
لفح الهواجر ، ولفرط شدته لم أجد ما يخففه فضلا عما يذهب به ،  
فإن النار المعدة له تطلب من الدفء أيضا ما أطلبه ، لكن  
وجدت نار أشواق أشد حرا فاصطليت بجمرتها التي لا  
تذكي بزناد ، ولا تؤول الى رماد ، ولا يدفع البرد الوارد  
على الجسد بأشد من حر الفؤاد ، غير أنى كنت فى ذلك  
كمن سد خلة بخلة ، واستشفى من علة بعلة ، فما ظنك بمن  
يصطفى نار الأشواق ، وقد قنع من أخيه بالأوراق ، فضن  
عليه بالأوراق ، فيينا هو يتكلم فى وصف البرد اذ خرج الى  
وصف الأشواق ، ومما ورد فى التخلص من المنظوم قول ابى  
الطيب المتنبي فى بعض قصائده

خليلى إني لا أرى غير شاعر

فلم منهم الدعوى ومنى القصائد

فلا تعجبا إن السيوف كثيرةٌ  
ولكنَّ سيفَ الدولةِ اليومَ واحدٌ  
فانظر كيف تخلص من الغزل الى المديح بأحسن  
خلاص وأعجبه . كما ترى، ومن عجيب ما جاء به في كلامه هذا،  
هو أنه جمع بين مدح نفسه ومدح سيف الدولة في بيت واحد،  
وهو من بدائمه المأثورة عنه في غير موضع ، ومن ذلك ما قاله  
أبو تمام في بعض قصائده

خُلِّقَ أَطْلًا مِنَ الرَّبِيعِ كَأَنَّهُ  
خُلِّقَ الْإِمَامِ وَهَدِيَهُ الْمُتَسَيِّرُ  
فِي الْأَرْضِ مِنْ عَدَلِ الْإِمَامِ وَجُودِهِ  
وَمِنَ الشَّبَابِ الْغَضِّ شَرِّحٌ يَزْهَرُ  
يُنْسِي الرِّيَاضَ وَمَا يُرَوِّضُ فَعْلَهُ  
أَبْدًا عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي يَذْكَرُ

فهذا وامثاله من لطائف التخليصات وأعجبها، والشعراء  
يتفاوتون في هذا الباب، وربما اختلف بعض الشعراء بالاجادة  
في شعره من جزالة ألفاظه، ودقة معانيه، لكنه مع هذا  
لم يَفُوق في التخليص كما فاق غيره من الشعراء، كما يحكى عن

البحترى ، فإن مكانه في الشعراء لا يُجْهَل ، وشعره هو السهل  
المتنع الذي تراه كالشمس قريباً ضوءها ، بعيداً مكانها ، أو  
يكون كالقناة ، لِينًا مَسْهَاً ، خَشِينًا سِينَانُهَا ، وقالوا أيضاً إنه  
في الحقيقة قَيْنَةُ الشعراء في الإِطْرَابِ ، وَعَنْقَاؤُهُمْ في الإِغْرَابِ ،  
ومع ما حكيناه فانه لم يُجِدْ في التخليص من الغزل الى المديح  
بل اقتضبه اقتضاباً على وجهٍ لا ملائمة بينه وبين الاول ، وله  
مواضع قليلة أحسن فيها التخلص ، لكنها حقيرةٌ بالاضافة  
الى ما أساء فيها الخلاص ، ومن أعجب ما يذكر في مثال  
التخلص ما حكاه ابن الأثير: أن قرَواشاً الملقَّبَ بشرف الدولة  
ملكَ العرب صاحب الموصِلِ ، اتفق انه كان جالساً مع نُدَمائه  
في ليلة من ليالى الشتاء ، وفي جملتهم رجالٌ منهم البرقعيدى  
وكان مُغْنِيًّا ، وسليمانُ بنُ فَهْدٍ ، وكان وزيراً وأبو جابر ، وكان  
حاجباً ، فآلتمسَ شرفُ الدولة من هذا الشاعر أن يهجو هؤلاء  
ويمدحه فأنشد هذه الأبيات ارتجالاً قال فيها

وليلِ كوجهِ البرقعيدى مُظلم  
وَبَرْدِ أغانيه وطولِ قُرُونِه  
سَرَيْتُ ونومى فيه نومٌ مُشَرَّدٌ  
كعقلِ سليمان بن فهدٍ ودينه

على أولقٍ فيه التفاتٌ كأنه  
أبو جابرٍ في خبطه وجنونه  
الى أن بدأ وجه الصباح كأنه  
سنا وجه قرواش وضوء جبينه

فانظر الى ما أودعه في هذه الأبيات من هجاء هوّلاء  
الثلاثة في أبيات ثلاثة ، وتخلص في البيت الرابع بأحسن  
الخلاص في مدح شرف الدولة ، وهذه الايات أحسن  
ما يورد في أمثلة التخليص فهذا ما أردنا ذكره في أمثلة  
التخليصات

### ﴿ الضرب الثاني ﴾

( في الاقتضاب )

وهو نقيضُ التخليص ، وذلك أن يقطع الشاعر كلامه  
الذي هو بصدده ثم يستأنف كلاما آخرَ غيره من مديحٍ  
أو هجاءٍ أو غير ذلك من أفانين الكلام لا يكون بين الاول  
والثاني ملائمةٌ ولا مناسبة، وهذا هو مذهب الشعراء المتقدمين  
من العرب كامرئ القيس والنابغة وطرفة ولييد ، ومن تلامم  
من طبقات الشعراء ، فأما المحدثون من الشعراء كأبي تمام وأبي

الطيب وغيرهم ممن تأخر فإنهم تصرفوا في التخليصات فأبدعوا فيها وأظهروا كل غريبة كما أسلفنا تقريره ، ولندكر أمثلة الاقتضاب فمن كتاب الله تعالى ( واذكر عبادنا إسحق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وإينهم عندنا لمن المصطفين الأخيار واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار هذا ذكر وإن للمتقين حسن ما ب جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ) فصدر الكلام أولا بذكر الانبياء والثناء عليهم ثم ذكر بعده بابا آخر غير ذلك لا تعلق له بالأول ، وهو ذكر الجنة وأهلها ، ثم لما أتم ذكره عقبه بذكر النار وأهلها بقوله ( هذا وإن للطاغين لشر ما ب ) فانظر الى هذا الاقتضاب الرائق ، والذي حسن من موقعه لفظة ( هذا ) فانها جعلت له موقعا أحسن من التخليص ، وورودها في المنشور أكثر من ورودها في المنظوم ، وقد قررنا فيما سبق حسن موقعها ، ومن محاسن الاقتضاب قول القائل أما بعد حمد الله تعالى والثناء عليه والصلاة على رسوله فانها تأتي لقطع الكلام الاول عن الثاني ، وهذه اللفظة قد أجمع أهل

التحقيق من علماء البيان على أنها هي فصلُ الخطاب الذي أراد الله في قوله ( وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابَ ) ( وأما مثاله ) من السنة النبوية فقوله صلى الله عليه وسلم فليأخذ العبدُ من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشببية قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت ، بعد قوله ألا وإن المرء بين مخافتين ، بين أجلٍ قد مضى لا يدري ما الله صانعٌ به ، وبين أجلٍ قد بقي لا يدري ما الله قاضٍ فيه ، فليأخذ العبدُ لنفسه من نفسه ، فانظر الى هذا الاقتضاب ما أعجبه وألطفه يكاد يقرب من التخليص ، ومن تتبع كلامه في الخطب والمواعظ فإنه يجد فيه من حسن الاقتضاب شيئاً كثيراً ( وأما مثاله ) من كلام أمير المؤمنين كرم الله وجهه فكقوله ثم إن الدنيا دارٌ فناءٌ وعناءٌ وعبرٌ وغيرٌ ، فمن الفناء أن الدهر مؤثرٌ قوسه لا يخطئ سهامه ، ولا يؤسى جراحه ، يرمى الحى بالموت ، والصحيح بالسقم ، والناجى بالعطب ، آكلٌ لا يشبع ، وشاربٌ لا ينقع ، ومن العناء أن المرء يجمعُ مالا يأكل ، ويبنى مالا يسكن ، ثم يخرج الى الله تعالى لا مالا يحمل ، ولا بناءً نقل ، ومن عبرها أنك ترى المغبوطَ مرحوماً ،

والمَرْحُومَ مغبوطاً ، ليس ذلك إلا نعيماً زَلَّ ، وبؤساً نزل ،  
ومن غيرها أن المرء يُشرفُ على أمله ، فيقتطعه حضورُ أجله ،  
فلا أملَ يُذرك ، ولا مؤملاً يُترك ، فسبحان الله ما أغرَّ  
سرُورها ، وأظماً رِيَّها ، وأطحنَ فيئها ، لا جاءَ يُردُّ ، ولا  
ماضٍ يَرتدُّ ، فسبحان الله ما أقربَ الحى من الميت للحاقه به ،  
وأبعدَ الميت من الحى لا تقطاعه عنه ، إنه ليس شرٌّ من الشرِّ  
الاعقابه ، ولا خيرٌ من الخير الا ثوابه ، وكلُّ شئٍ من  
الدنيا سماعه أعظمُ من عيانه ، وكلُّ شئٍ من الآخرة عيانه  
أعظمُ من سماعه ، فليكفكم من العيان السماع ، ومن الغيب  
الخبر ، واعلموا أن كل ما نقص من الدنيا وزاد في الآخرة  
خيرٌ مما نقص في الآخرة وزاد في الدنيا ، فكم من منقوص  
رَاجحٌ ، ومزِيدٌ خاسِرٌ ، إن الذى أمرتم به أوسع من الذى  
نهيتم عنه ، وما أحلَّ لكم أكثرُ مما حرَّم عليكم ، فذرُّوا  
ما قلَّ لما كَثُرَ ، وما ضاق لما اتَّسع ، قد تُكفِّلُ لكم بالرزق ،  
وأمرتم بالعمل ، فلا يكونن المضمونُ لكم طلبه أولى بكم من  
المفروض عليكم عمله ، مع أنه والله لقد اعترض الشكُّ ودخلَ  
اليقينُ ، حتى كأن الذى قد ضمنَ لكم قد فرضَ عليكم ، وكأن

الذي قد فرض عليكم قد وُضع عنكم ، فبادروا العمل ، وخافوا  
بَفْتَةِ الأجل ، فانه لا يُرْجى من رجعة العمل ما يُرْجى من  
رجعة الرزق ، ما فات اليوم من الرزق رُجى غداً زيادته ،  
وما فات أمس من العمر لم تُرج اليوم رجعته ، الرجاء مع  
الجانى واليأس مع الماضى ، فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتنَّ  
الآن وأنتم مسلمون

وأقول إن هذا الكلام هو الشفاء بعد كلام الله ، والذي  
ينبغى أن يكون عليه الاعتماد بعد سنة رسول الله ، فلقد  
ضمّنه من محاسن الاقتضاب من أبلغ الوعظ أعجب العُجاب ،  
وما فيه بلاغٌ وذكرى لأولى الالباب ، فانظروا إليها المتأمل كيف  
افتتح الكلام بدم الدنيا وما اشتملت عليه من صروف المحن  
والبلى ، ثم خرج منه الى الخروج عن الدنيا ، ثم خرج منه الى  
ذكر غرورها ، ثم خرج منه الى ذكر منزلة الحى من الميت فى  
بعدها وقربها ، ثم أرففه بذكر حال الثواب والعقاب ، ثم رجع الى  
ذكر حال الدنيا بوصف آخر مع الآخرة من زيادة أو نقصان ،  
ثم خرج الى ذكر الرزق وما ضمن منه ، ثم ذكر التكليف وما  
حملنا منه ، ثم خرج الى ذكر الأمل وما حملنا منه ، ثم خرج منه  
الى ذكر الأمل وغروره ، وذكر الأجل وحضوره ، يقتضب كل

واحد من هذه الآداب اقتضاباً ربّما كان أحسن من  
التخلص ، لما فيه من الرقة واللطافة ، ثم ختم هذا الكلام  
بختام هو لبّابُ سرّه ، ونظام سلّكهِ وعبقاتُ عبيرهِ .  
ونفحات مسكهِ ، وهو قوله فاتقوا الله حقّ تقّاته ولا تموتنّ الا  
وانتم مسلمون ، فهي جامعة لجميع ما أسلفه ، ومؤكّدة لما عدّده  
ورصفه ، فلو كان من كلام البشر معجزةً لكان هذا هو الأول  
ولو أعجز شئٌ من الكلام بعد كلام الله لكان هذا هو الثاني ،  
ومن بديع ما جاء في الاقتضاب قولُ البحترى يمدح الفتح  
ابن خاقان بعد انخساف الجسر به في قصيدته التي مطلعها

مَتَى لَاحَ بَرَقَ أَوْ بَدَأَ طَلَلُ قَفَرٍ

جَرَى مُسْتَهْلٌ لَا بَكِيٌّ وَلَا نَزْرُ

وبعدده

فَتَى لَا يَزَالُ الدَّهْرَ بَيْنَ رَبَاعِهِ - أَيَادِيهِ بِيضٌ وَأَفْنِيَةٌ خُضْرُ  
فِينَا هُوَ فِي غَزَلِهَا إِذْ خَرَجَ إِلَى الْمَدِيحِ عَلَى جِهَةِ  
الاقتضاب بقوله

لِعَمْرُكَ مَا الدُّنْيَا بِنَاقِصَةِ الْجَدَا

اذا بقى الفتحُ بن خاقان والقطرُ

نخرج الى المديح من غير أن يكون هناك له سبب من  
الأسباب كما ترى ، ومن ذلك ما قاله أبو نواس في قصيدته  
التي مطلعها قوله ( يَا كَثِيرَ النَّوْحِ فِي الدِّمَنِ ) فضعمتها غزلاً  
كثيراً ثم قال بعد ذلك

تضحكُ الدنيا الى ملكٍ \* قامَ بالآثارِ والسننِ  
سنَّ للناسِ الندى فندوا \* فكانَّ المحلَّ لم يكنِ  
وأكثر مدائح أبي نواس مؤسَّسةٌ على الاقتضاب من  
غير ذكر التخلص وفيما ذكرناه كفاية عن ابانة التخلص  
والاقتضاب فهذا ما اردنا ذكره فيما يختص بالدلائل المركبة  
وهو الباب الثالث

## الباب الرابع

( من فن المقاصد في ذكر انواع علم البديع وبيان أقسامه )

اعلم أن ما أسلفنا ذكره في الباب الأول إنما هو كلامٌ  
فيما يتعلق بكيفية الوضع ، إما في الأصل فيكون حقيقة ، أو  
في غيره فيكون مجازاً ، والباب الثاني إنما هو كلام في الدلائل  
من جهة الالفاظ الإفرادية ، والباب الثالث إنما هو كلام في